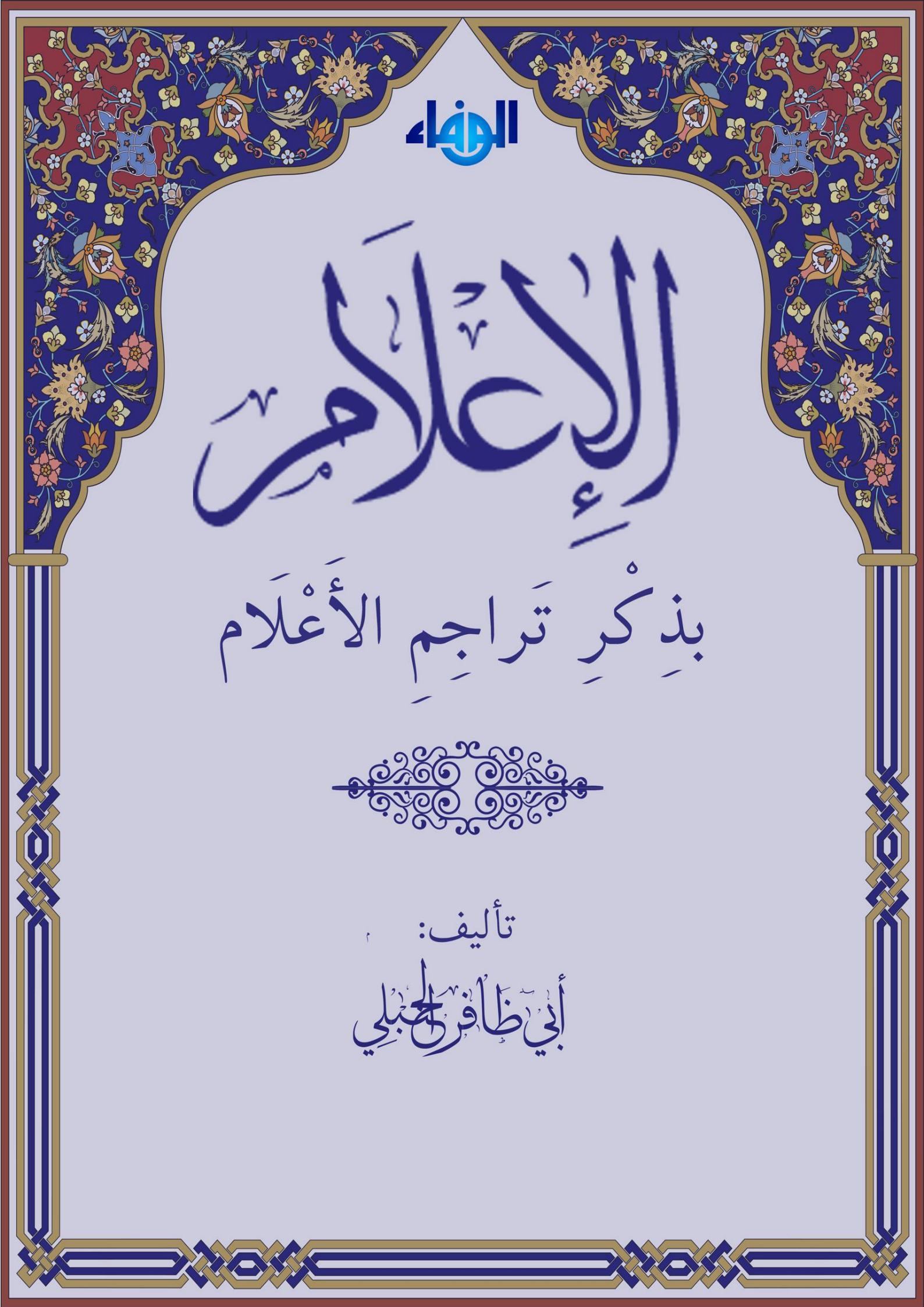
الوفاء
الإعلام
بذكر تراجم الأعلام
تأليف:
أبي ظافر الحنبلي

الإِعْلَام
بذِكْرِ تَراجِمِ الأَعْلَام

تأليف:
أبي ظافر الحَنْبَلي

1438 هـ | 2017 م

الوفاء

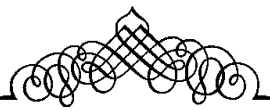

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدِّمة:

الحمدُ لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران: 102].

﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**﴾ [النساء: 1].

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا**﴾ [الأحزاب: 70- 71].

أمَّا بعد:

فإنَّ في سِيَرِ الناس وأحوالهم عبرةً لمن عاصرهم ولمن جاء بعدهم، سواء كانت سيرهم محمودةً أم غير ذلك؛ فإنَّها إن كانت غير محمودة انتفع الناس بما كان لهم من العقوبات الإلهية الرادعة، وإن كانت محمودة فهي خير لمن جاء بعدهم، فإنهم يتخذونهم أسوة حسنة فيسيرون على ما ساروا عليه وينتفعون بطريقتهم ونهجهم في الدين والدنيا.

وقد اخترت بعض الأعلام ممن سيرتهم محمودة وأقوالهم متبعة لننتفع بسيرهم، ونأخذ مما أخذوا منه ونستفيد من الوقائع التي وقعت لهم.

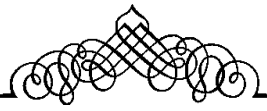

واختياري غير مبنيٍّ على قاعدة، وإنما وقع هكذا من غير تخطيط.

هذا وما كان من صوابٍ فمن الله، وما كان من خطإٍ فمن نفسي والشيطان، وأستغفر الله منه، وأسأل الله أن يتقبَّل مني وممن قرأه وساهم في إخراجه ونشره، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتب:

أبو ظافر الحنبلي

الأحد 25 ربيع الأول 1438 هـ – 25 ديسمبر 2016 م

***

الإمامُ الأوْزاعِيُّ رحمه الله:

نسبه ومولده ووفاته:

هو الإمام أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن يُحْمَد بن عبد عمرو الأوزاعي، ولد سنة ثمان وثمانين، ومات سنة سبع وخمسين ومائة في آخر خلافة أبي جعفر، وهو ابن سبعين سنة[1].

سبب تلقيبه بالأوزاعي:

أمَّا الأوزاع فهي قرية في دمشق، وهو لم يكن في الأصل منها؛ بل هو من سباء السند، وقيل من سبي أهل اليمن، وقد ارتحل إليها الإمام الأوزاعي وأقام فيها فلقِّب باسمها. وقيل إنما لقِّب بالأوزاعي لأنه من أوزاع القبائل، وقد تحول الأوزاعي إلى بيروت فبقي مرابطًا بها حتى وفاته[2].

سَعة علمِ الأوزاعي وعِظَم فِقهه:

لقد كان هذا الإمام من أعاجيب الزمان، من كثرة اطلاعه وسَعة حفظه وقوة ذاكرته وسحر بيانه وإذعان مناظريه لحججه، وقد جمع العبادة والورع والعلم والقول بالحقِّ.

وكان رحمه الله إذا جالس الأئمة وذاكرهم في مسائل الشريعة أفحمهم ورجعوا إلى قوله واعترفوا له بالفضل والعلم، كيف لا وهو ممن تُشَدُّ إليه الرحال لأخذ السنَّة وفقهِها عنه.

---

(1) **ينظر**: الطبقات الكبرى (7/ 339)، والتاريخ الكبير للبخاري (5/ 326).

(2) **ينظر**: تاريخ دمشق لابن عساكر (35/ 155)، ورجال صحيح مسلم (1/ 412)، ورجال صحيح البخاري = الهداية والإرشاد في معرفة أهل الثقة والسداد (1/ 450)، والثقات لابن حبان (7/ 62)، وطبقات الفقهاء (ص: 76)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (35/ 147)، وتاريخ الإسلام (4/ 120).

قال عون بن حكيم: "خرجت مع الأوزاعي حاجًّا فلما أتينا المدينة أتى الأوزاعي المسجد وبلغ مالكًا مقدمه فأتاه مسلمًا عليه فجلسا من بعد صلاة الظهر يتذاكران العلم فلم يذكرا بابًا من أبوابه إلا غلب الأوزاعي عليه فيه ثم حضرت صلاة العصر فصلَّيا ثمَّ جلسا وعاودا المذاكرة، كل ذلك يغلب عليه الأوزاعي فيما يتذاكران فلما اصفرَّت الشَّمس ناظره في باب المكاتَب والمدبَّر فخانقه مالك بن أنس فيه"[3]، فمالكٌ على جلالة قدره لم يستطع أن يحج الأوزاعي، مما يدل على سعة فقه الأوزاعي وقوة فطنته.

وقد انتصب الأوزاعي للفُتيا وهو ابن خمس وعشرين سنة، وقد بلغت مسائل الأوزاعي التي له عليها جواب سبعين ألف مسألة، ومن ينظر في كتابات الأوزاعي يظنُّ أنه كان صاحب كلام؛ غير أن الحقيقة تختلف تمامًا؛ لأنه كان كثير الصمت.

وكان المرجع في الفتيا ببلاد الشام كما أنَّ مالكا مرجع الفُتيا في المدينة، فهو من أصحاب المذاهب المعتبرة، ولكن مذهبه لم يشتهر لأسباب، ولعلَّ من أهم الأسباب قلَّة الأتباع، وعدم الدعم من السلاطين، وهذا قد يكون من أهم الأسباب في انتشار المذاهب، والله أعلم.

ما هو السَّبب الذي أثَّر في الأوزاعي فجعله يطلبُ العلمَ؟

السبب هو كلمات يسيرات قالها المحدث يحيى بن أبي كثير في الأوزاعي عندما كان فتى؛ فعن يزيد بن عبد الله بن صالح البيروتي قال: "كان سبب طلب الأوزاعي العلم أنه ضرب عليه بعث -يعني إلى اليمامة- فلما دخلوا مسجدها ويحيى بن أبي كثير جالس في المسجد، فنظر إليهم فقال: إما أنه إن كان عند أحد من هؤلاء القوم خير فهو عند هذا الفتى -يعني الأوزاعي-، ثم مر به وهو قائم يصلي فقال لجلسائه: ما رأيت مصليًا قط أشبه بعمر بن عبد العزيز بصلاته من هذا الفتى"[4].

(3) الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (1/ 184). **وينظر**: تاريخ الإسلام (4/ 122).

(4) الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (1/ 186). **وينظر**: تاريخ دمشق، لابن عساكر (35/ 159).

وقال الأوزاعي: "مات أبي وأنا صغير، فذهبت ألعب مع الغلمان، فمر بنا فلان -وذكر شيخًا جليلًا من العرب- ففر الصبيان حين رأوه، وثبتُّ أنا، فقال: ابن من أنت؟ فأخبرته، فقال: يا ابن أخي! يرحم الله أباك.

فذهب بي إلى بيته، فكنت معه حتى بلغت، فألحقني في الديوان، وضرب علينا بعثًا إلى اليمامة، فلما قدمناها، ودخلنا مسجد الجامع، وخرجنا، قال لي رجل من أصحابنا: رأيت يحيى بن أبي كثير معجبًا بك، يقول: ما رأيت في هذا البعث أهدى من هذا الشاب! قال: فجالسته، فكتبت عنه أربعة عشر كتابًا، أو ثلاثة عشر، فاحترق كله"[5].

توقير الأئمَّة للأوزاعي:

وعندما اشتهر الأوزاعي بحفظه وإتقانه وفقهه -حتى كان محطَّ الرحال لطلبة الحديث وفقهه من جميع البلدان- كان هذا الأمر سببًا في توقير الأئمة وتزكيتهم له وثنائهم عليه، فعندما ذهب الأوزاعي إلى الحجاز وكان أئمة الحجاز سفيان الثوري ومالك بن أنس -رحمهما الله-، فلمَّا علِما بقدومه خرجا من المدينة لاستقباله؛ فعن الختلي قال: "رأيت شيخًا راكبًا على جمل وآخر يقوده وآخر يسوقه، وهما يقولان أوسعوا للشيخ، فقلت: من الراكب؟ قيل: الأوزاعي، قلت: من القائد؟ قيل: سفيان الثوري، قلت: فمن السائق؟ قيل مالك"[6]. وما كان هذا الصنيع من هذين العالمين الجليلين إلا لجلالة الأوزاعي وعظم قدره.

أقوال العلماء في إمامة الأوزاعي:

لا شكَّ أن من قرأ ما مرَّ يعلم يقينًا جلالة هذا الإمام؛ ولكن لا بدَّ من ذكر كلام الأئمة في إثباتهم لإمامة الأوزاعي.

(5) سير أعلام النبلاء (7/ 110).

(6) تاريخ دمشق، لابن عساكر (35/ 164). **وينظر**: تاريخ الإسلام (4/ 122).

قال عبد الرحمن بن مهدي: "كان الأوزاعي إمامًا في السنة، وقال أيضًا: الأئمة في الحديث أربعة، الأوزاعي ومالك وسفيان وحماد بن زيد".

وقال سفيان بن عيينة: "كان الأوزاعي إمام – قال أبو محمد يعني إمام زمانه".

وقال أحمد بن حنبل دخل سفيان والأوزاعي على مالك فلما خرجا قال مالك: "أحدهما أكثر علمًا من صاحبه ولا يصلح للإمامة، والآخر يصلح للإمامة"، قال أبو محمد يعني الأوزاعي.

وعن أبي إسحاق الفزاري قال: "قال الأوزاعي: "إذا مات سفيان وابن عون استوى الناس" –قلت في نفسي: وأنت الثالث– يعني الأوزاعي قال أبو محمد يعني أن الأوزاعي قرين الثوري وابن عون"[7].

وقال علي بن بكار: "سمعت أبا إسحاق الفزاري يقول: ما رأيت مثل الأوزاعي والثوري! فأما الأوزاعي فكان رجل عامة، وأما الثوري فكان رجل خاصة نفسه، ولو خيرت لهذه الأمة، لاخترت لها الأوزاعي – يريد: الخلافة–..."، وقال الخريبي: "كان الأوزاعي أفضل أهل زمانه".

وعن ابن المبارك، قال: "لو قيل لي: اختر لهذه الأمة، لاخترت سفيان الثوري والأوزاعي، ولو قيل لي: اختر أحدهما، لاخترت الأوزاعي؛ لأنه أرفق الرجلين"[8].

كثرة عبادته:

لقد كان الأوزاعي من المعروفين بكثرة عبادته، وإدامة ذكر الله، والحفاظ على ورده، قال الوليد بن مسلم: "رأيت الأوزاعي يثبت في مصلَّاه، يذكر الله حتى تطلع الشمس، ويخبرنا عن السلف: أن ذلك كان هديهم، فإذا طلعت الشمس، قام بعضهم إلى بعض، فأفاضوا في ذكر الله، والتفقه في دينه"[9].

(7) الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (1/ 203). **وينظر**: تاريخ دمشق لابن عساكر (35/ 163)، وتاريخ الإسلام (4/ 122).
(8) سير أعلام النبلاء (7/ 113). **وينظر**: الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (1/ 206).

وقال الوليد بن مسلم: "ما رأيت أكثر اجتهادًا في العبادة من الأوزاعي".

وقال ضمرة بن ربيعة: "حججنا مع الأوزاعي سنة خمسين ومائة، فما رأيته مضطجعًا في المحمل في ليل ولا نهار قط، كان يصلي، فإذا غلبه النوم استند إلى القتب".

وقال أبو مسهر: "ما رئي الأوزاعي باكيًا قط، ولا ضاحكًا حتى تبدو نواجذه، وإنما كان يتبسم أحيانًا – كما روي في الحديث– وكان يحيي الليل صلاة، وقرآنًا، وبكاءً، وأخبرني بعض إخواني من أهل بيروت: أن أمه كانت تدخل منزل الأوزاعي، وتتفقد موضع مصلَّاه، فتجده رطبًا من دموعه في الليل"[10].

رؤى المنام التي رآها ورُئيت له:

لقد كانت رؤيا المنام –سواء كان هو من رآها أو رآها غيره فيه– كلُّها خيرًا، وتبشِّر بخيريَّة هذا العلَم المقدام والحبر الإمام.

قال الذهبي: "قال محمد بن الأوزاعي: قال لي أبي: يا بني! أحدثك بشيء لا تحدث به ما عشت: رأيت كأنه وقف بي على باب الجنة، فأخذ بمصراعي الباب، فزال عن موضعه، فإذا رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعمر يعالجون رده، فردوه، فزال، ثم أعادوه، قال: فقال لي رسول الله ﷺ: "يا عبد الرحمن! ألا تمسك معنا؟" فجئت حتى أمسك معهم، حتى ردوه".

وعن الوليد بن مسلم، قال: "ما كنت أحرص على السماع من الأوزاعي، حتى رأيت رسول الله ﷺ في المنام، والأوزاعي إلى جنبه، فقلت: يا رسول الله! عمن أحمل العلم؟ قال: "عن هذا"، وأشار إلى الأوزاعي".

قلت[11]: "كان الأوزاعي كبير الشأن".

=

(9) سير أعلام النبلاء (7/ 114). **وينظر**: تاريخ الإسلام (4/ 122).

(10) سير أعلام النبلاء (7/ 119). **وينظر**: الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (1/ 217).

وقال الأوزاعي: "رأيت كأن ملكين عرجا بي، وأوقفاني بين يدي رب العزة، فقال لي: أنت عبدي عبد الرحمن الذي تأمر بالمعروف؟ فقلت: بعزتك أنت أعلم. قال: فهبطا بي حتى ردَّاني إلى مكاني".

وعن محمد بن شعيب، قال: "جلست إلى شيخ في الجامع، فقال: أنا ميت يوم كذا وكذا، فلما كان ذلك اليوم، أتيته، فإذا به يتفلَّى في الصحن، فقال: ما أخذتم السرير -يعني: النعش- خذوه قبل أن تسبقوا إليه، قلت: ما تقول رحمك الله؟ قال: هو الذي أقول لك، رأيت في المنام كأن طائرًا وقع على ركن من أركان هذه القبة، فسمعته يقول: فلان قدري، وفلان كذا، وعثمان بن أبي العاتكة نعم الرجل، وعبد الرحمن الأوزاعي خير من يمشي على الأرض، وأنت ميت يوم كذا وكذا.

قال: فما جاءت الظهر حتى مات، وأخرج بجنازته"[12].

وعن أبي عبد الله قال: "جَاءَ رجل إِلَى سُفْيَان الثَّوْرِيِّ فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ إِلَى الْأَوْزَاعِيِّ يحدثني، فَقَالَ أما إِنِّي اكْتُبْ لَك إِلَيْهِ وَلَا أَرَاك تَجدهُ إِلَّا مَيتًا، لأني رَأَيْت رَيْحَانَة رفعت من قبل الْمغرب، وَلَا أَرَاهُ إِلَّا لموْت الْأَوْزَاعِيِّ فَأَتَاهُ فَإِذا هُوَ قد مَاتَ"[13].

صدعه بالحقّ:

كان الأوزاعي من الذين لا يخافون في الله لومة لائم، ولو كلفه ذلك أن يسفك دمه، وهذا في الحقيقة هو الذي يرفع شأن العبد ويوثق منزلته عند الناس، ومن عُرف عنه التزلف للحكام والتملق لهم من أجل أن يرمى له فتات نعمهم؛ فسوف يكتبه التاريخ في سفلة القوم.

=

(11) **أي**: الذهبي.

(12) سير أعلام النبلاء (7/ 126 - 128). **وينظر**: تاريخ دمشق لابن عساكر (35/ 193)، وتاريخ الإسلام (4/ 122).

(13) الثقات، للعجلي (2/ 83).

وإمامنا الأوزاعي كان علَمًا في هذا الباب وغيره من الأبواب، فقد كان يصدع بالحق عند السلاطين وينصحهم ولو تسبب ذلك بأذيته، وهو يتحدث عن نفسه فيقول: "لما فرغ عبد الله بن علي -يعني: عم السفاح- من قتل بني أمية، بعث إلي، وكان قتل يومئذ نيفًا وسبعين منهم بالكافركوبات، فدخلت عليه، فقال: ما تقول في دماء بني أمية؟ فحدت، فقال: قد علمت من حيث حدت، فأجب.

قال: وما لقيت مفوهًا مثله، فقلت: كان لهم عليك عهد، قال: فاجعلني وإياهم ولا عهد، ما تقول في دمائهم؟

قلت: حرام؛ لقول رسول الله ﷺ: «**لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلاَثٍ**...»[14]، الحديث.

فقال: ولم، ويلك؟! قال: أليست الخلافة وصية من رسول الله، قاتل عليها علي رضي الله عنه بصفين؟

قلت: لو كانت وصية ما رضي بالحكمين، فنكس رأسه، ونكست، فأطلت، ثم قلت: البول، فأشار بيده: اذهب. فقمت، فجعلت لا أخطو خطوة إلا قلت: إن رأسي يقع عندها"[15].

قلت: وهذه القصة تثبت مدى ثبات الأوزاعي وقوة صدعه بالحق أمام السلطان، وأن قوة السلطان وظلمه لم يمنعا الأوزاعي من قوله الصدق وثباته على الحق.

من أقوال الإمام الأوزاعي رحمه الله:

من مواعظه:

(14) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (9/ 5) برقم: 6878، ومسلم (3/ 1302) برقم: 1676، وتمامه: «**لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، إِلَّا بِإِحْدَى ثَلاَثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ**».

(15) سير أعلام النبلاء (7/ 123). **وينظر**: تاريخ دمشق لابن عساكر (35/ 179)، وتاريخ الإسلام (4/ 122).

أنه قال: "أيها الناس! تقووا بهذه النعم التي أصبحتم فيها على الهرب من نار الله الموقدة، التي تطلع على الأفئدة، فإنكم في دار، الثواء فيها قليل، وأنتم مرتحلون وخلائف بعد القرون، الذين استقالوا من الدنيا زهرتها، كانوا أطول منكم أعمارًا، وأجد أجسامًا، وأعظم آثارًا، فجددوا الجبال، وجابوا الصخور، ونقبوا في البلاد، مؤيَّدين ببطش شديد، وأجسام كالعماد، فما لبثت الأيام والليالي أن طوت مدَّتهم، وعفت آثارهم، وأخوت منازلهم، وأنست ذكرهم: ﴿**هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا**﴾ [مريم: 98]، كانوا بلهو الأمل آمنين، ولميقات يوم غافلين، ولصباح قوم نادمين، ثم إنكم قد علمتم ما نزل بساحتهم بياتًا من عقوبة الله، فأصبح كثير منهم في ديارهم جاثمين، وأصبح الباقون ينظرون في آثار نقمه، وزوال نعمه، ومساكن خاوية، فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم، وعبرة لمن يخشى، وأصبحتم في أجل منقوص، ودنيا مقبوضة، في زمان قد ولى عفوه، وذهب رخاؤه، فلم يبق منه إلا حمة شر، وصبابة كدر، وأهاويل غير، وأرسال فتن، ورذالة خلف"[16] ا. هـ.

شيء من كلامه:

(قال الأوزاعي رحمه الله: "من أكثر ذكر الموت، كفاه اليسير، ومن عرف أن منطقه من عمله، قل كلامه".

وقال: "من أطال قيام الليل، هون الله عليه وقوف يوم القيامة".

وقال: "عليك بآثار من سلف، وإن رفضك الناس، وإياك وآراء الرجال، وإن زخرفوه لك بالقول، فإن الأمر ينجلي، وأنت على طريق مستقيم".

وقال محمد: "قال لي أبي: يا بني! لو كنا نقبل من الناس كل ما يعرضون علينا، لأوشك أن نهون عليهم".

وقال: "إن المؤمن يقول قليلًا، ويعمل كثيرًا، وإن المنافق يتكلم كثيرًا، ويعمل قليلًا".

(16) سير أعلام النبلاء (7/ 117).

وقال: "إذا أراد الله بقوم شرًّا فتح عليهم الجدل، ومنعهم العمل".

وقال: "من أخذ بنوادر العلماء، خرج من الإسلام".

وقال: "ما ابتدع رجل بدعة، إلا سلب الوَرَع"[17]ا. هـ.

جنازته ومَن شَهِدها:

قال العباس بن الوليد: "وحدثني سالم بن المنذر، قال: لما سمعت الضجَّة بوفاة الأوزاعي، خرجت، فأول من رأيت نصرانيًّا قد ذرَّ على رأسه الرماد، فلم يزل المسلمون من أهل بيروت يعرفون له ذلك، وخرجنا في جنازته أربعة أمم، فحمله المسلمون، وخرجت اليهود في ناحية، والنصارى في ناحية، والقبط في ناحية"[18].

***

(17) سير أعلام النبلاء (7/ 117 - 125). **وينظر**: تاريخ الإسلام (4/ 122).

(18) سير أعلام النبلاء (7/ 127). **وينظر**: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (1/ 202)، وتاريخ الإسلام (4/ 122).

اللَّيْثُ بنُ سَعْدٍ رحمه الله:

نسبُه ومولدُه ووفاتُه:

شيخ الإسلام وحجَّة الأنام، مفتي الديار المصرية، أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي المصري، مولى عبد الرحمن بن خالد بن مسافر، وقيل: مولى بن ثابِت بن ظاعن جد عبد الرَّحمن بن خالد بنِ مسافر.

ولد سنة أربع وتسعين بقرقشندة -قرية من أسفل أعمال مصر-، ومات يوم الجمعة لأربع عشرة ليلة بقيت من شعبان، سنة خمس وستين ومائة، في خلافة المهدي[19].

ثناءُ العُلَماء عليه:

لقد بلغ الليث بن سعد رحمه الله مبلغًا كبيرًا في الديانة والإتقان، والفقه وصدق الحديث وبلاغة الكلام؛ مما جعل أكابر علماء المسلمين يبالغون في الثَّناء عليه ويعظِّمونه، ويعرفون له قدره، ويروون عنه ما بلغه من الآثار؛ بل وصل الأمر أنْ قدَّموه على مالك رحمه الله!

(قال الشافعي رضي الله عنه: "الليث بن سعد أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به".

وكان ابن وهب تقرأ عليه مسائل الليث، فمرَّت به مسألة فقال رجل من الغرباء: أحسن والله الليث، كأنه كان يسمع مالكًا يجيب فيجيب هو، فقال ابن وهب للرجل: "بل كان مالك يسمع الليث يجيب فيجيب هو، والله الذي لا إله إلا هو ما رأينا أحدًا قط أفقه من الليث".

---

(19) **ينظر**: الطبقات الكبرى (7/ 358)، وتاريخ أصبهان = أخبار أصبهان (2/ 138)، وتاريخ بغداد (14/ 524)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال (24/ 255)، وتاريخ الإسلام (4/ 711)، وميزان الاعتدال (2/ 440)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (50/ 347)، والمعارف (1/ 505)، والمعرفة والتاريخ (2/ 441).

وقال يحيى بن بكير: "ما رأيت أحدًا أكمل من الليث بن سعد، كان فقيهَ البدن، عربي اللسان، يحسن القرآن والنحو، ويحفظ الشعر والحديث، حسن المذاكرة -وما زال يذكر خصالًا جميلة ويعقد بيده حتى عقد عشرة- لم أرَ مثله".

قال سعيد بن أبي أيوب: "لو أن مالكًا والليث اجتمعا لكان مالكٌ عند الليث أبكم، ولباع الليث مالكًا في من يزيد"[20].

وقال ابن وهب: "كلُّ ما كان في كتب مالك وأخبرني من أثق به من أهل العلم فهو الليث بن سعد، وقال ابن وهب: لولا مالك والليث بن سعد لضلَّ الناس")[21].

سعةُ علمِه وفِقهه، وعظمُ منزلتِه عندَ العُلَماء والأمراء:

كان الليثُ بن سعد ﵀ موسوعةً تحوي كلَّ العلوم؛ فمنه تتفجَّر ينابيع الحكمة، ومن علمه وفقهه ينهل العلماء، وهو صاحب حجة ولسان فصيح يجادل بالحق فيفحم أئمَّة زمانه، شهد له القاصي والداني بتبحُّره وقوة برهانه؛ حتى إنَّ الناس ومنهم الأمراء لا يعدلون به غيره، وينزلون عند رأيه وينصرفون عما انصرف هو عنه، ولا يستبدلون رأيه برأي غيره وخصوصًا أهل مصر.

(قال أبو محمد ابن أبي القاسم: "قلت للَّيث: أمتع الله بك يا أبا الحارث، إنا نسمع منك الحديث ليس في كتبك، قال: أو كل ما في صدري في كتبي لو كتبت ما في صدري ما وسعه هذا المركب".

وعن يحيى بن معين، قال: "هذه رسالة مالك إلى الليث، حدثنا بها عبد الله بن صالح يقول فيها: وأنت في إمامتك وفضلك ومنزلتك من أهل بلدك، وحاجة من قبلك إليك، واعتمادهم على ما جاءهم منك".

---

(20) قال الذهبي: "قلت: لا يصح إسنادها؛ لجهالة من حدث عن سعيد بها، أو أن سعيدًا ما عرف مالكًا حق المعرفة". [سير أعلام النبلاء (8/ 147)].

(21) وفيات الأعيان (4/ 127). **وينظر**: تاريخ دمشق لابن عساكر (50/ 348)، وتاريخ بغداد (14/ 524)، والطبقات الكبرى (7/ 358)، والمعارف (1/ 505)، والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم (9/ 13).

وقال أبو زرعة الرازي: "سمعت يحيى بن بكير يقول: الليث أفقه من مالك، ولكن الحظوة لمالك رحمه الله".

وقال حرملة: "سمعت الشافعي يقول: الليث أتبع للأثر من مالك".

وقال الذهبي: "كان الليث -رحمه الله- فقيه مصر، ومحدثها، ومحتشمها، ورئيسها، ومن يفتخر بوجوده الإقليم، بحيث إن متولي مصر وقاضيها وناظرها من تحت أوامره، ويرجعون إلى رأيه ومشورته، ولقد أراده المنصور على أن ينوب له على الإقليم فاستعفى من ذلك".

وعن يعقوب بن داود وزير المهدي، قال: "قال أمير المؤمنين لما قدم الليث العراق: الزم هذا الشيخ، فقد ثبت عندي أنه لم يبق أحد أعلم بما حمل منه".

وقال يحيى بن بكير، حدثنا شرحبيل بن جميل، قال: "أدركت الناس أيام هشام الخليفة، وكان الليث بن سعد حدث السن، وكان بمصر عبيد الله بن أبي جعفر، وجعفر بن ربيعة، والحارث بن يزيد، ويزيد بن أبي حبيب، وابن هبيرة، وإنهم يعرفون لليث فضله وورعه وحسن إسلامه عن حداثة سنه، ثم قال ابن بكير: لم أرَ مثل الليث".

وقال أحمد: "ليث كثير العلم، صحيح الحديث".

وقال بكر بن مضر: "قدم علينا كتاب مروان بن محمد إلى حوثرة والي مصر: إني قد بعثت إليكم أعرابيًّا بدويًّا فصيحًا من حاله، ومن حاله، فاجمعوا له رجلًا يسدِّده في القضاء، ويصوِّبه في المنطق، فأجمع رأي الناس على الليث بن سعد، وفي الناس معلماه: يزيد بن أبي حبيب، وعمرو بن الحارث".

وقال أحمد بن صالح: "أعضلت الرشيد مسألة، فجمع لها فقهاء الأرض، حتى أشخص الليث، فأخرجه منها".

وعن شرحبيل بن يزيد مولى شرحبيل بن حسنة قال: "أدركت الناس زمن هشام بن عبد الملك والناس إذ ذاك متوافرون، يزيد بن أبي حبيب وابن أبي جعفر وجعفر بن ربيعة وابن هبيرة والحارث بن يزيد، ومن يقدم

علينا من علماء أهل المدينة وعلماء أهل الشام للرباط، والليث يومئذ حدَث شابٌّ، وإنهم ليعرفون فضله ويقدِّمونه ويُشار إليه")[22].

صدعُه بالحَقِّ:

لقد بلغ الليث بن سعد رَحِمَهُ اللَّهُ من الشجاعة والإيمان بالله، وصدقه معه وزهده في الدنيا؛ مما جعله صادعًا بالحق ناصحًا لله ورسوله ﷺ وأئمة المسلمين وعامَّتهم، لا يخشى بنصحه إياهم فوات الدنيا ولا عذابها، فخوفه من الله هوَّن عليه لقاء الناس والملوك بحجَّته وبيانه وصدعه بالحق وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر؛ ولهذا سطع نجمه وعلا كعبه، وهابه عدوه وصديقه.

فعن عثمان بن صالح قال: "كان أهل مصر ينتقصون عثمان، حتى نشأ فيهم الليث بن سعد فحدَّثهم بفضائل عثمان فكفوا عن ذلك" [23].

(وقال أبو الحسن الخادم: "كنت غلامًا لزبيدة وأتي يومًا بالليث ين سعد، فكنت واقفًا على رأس زبيدة خلف الستارة فسأله هارون الرشيد فقال: حلفت أن لي جنتين، فاستحلفه الليث ثلاثًا أنك تخاف الله فحلف له، فقال له الليث: قال الله تعالى: ﴿**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**﴾ [الرحمن: 46]، قال: فأقطعه قطائع كثيرة بمصر"[24].

قال الليث بن سعد: "قال لي أبو جعفر: تلي لي مصر قلت: لا يا أمير المؤمنين إني أضعف عن ذلك، إني رجل من الموالي، فقال: ما بك ضعف معي، ولكن ضعفت نيتك في العمل عن ذلك لي")[25].

---

(22) وفيات الأعيان (4/ 132). **وينظر**: تاريخ دمشق لابن عساكر (50/ 361)، وتاريخ بغداد (14/ 524)، والطبقات الكبرى (7/ 358)، والمعارف (1/ 505)، والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم (9/ 13).

(23) تاريخ دمشق لابن عساكر (50/ 366)، وتاريخ بغداد (14/ 524).

(24) قال الذهبي: قلت: إن صح هذا، فهذا كان قبل خلافة هارون. [سير أعلام النبلاء (8/ 146)].

(25) وفيات الأعيان (4/ 129). **وينظر**: سير أعلام النبلاء (8/ 145)، وتاريخ بغداد (14/ 524)، والمعرفة والتاريخ (2/ 441).

زهدُه في الإمارة:

الزاهد الحق في الدنيا هو من تأتيه الدنيا بزينتها وزخرفها وأموالها وسلطانها، ثم يرفضها ويثني عطفه عنها؛ كل ذلك ابتغاء رضوان الله والدار الآخرة، والقناعة بما قسمه الله له، وهذه هي حقيقة الزاهد العابد حجة الاسلام الليث بن سعد رحمه الله.

(قال الليث: "قال لي المنصور: تلي لي مصر؟ فاستعفيت. قال: أما إذ أبيت، فدلني على رجل أقلده مصر، قلت: عثمان بن الحكم الجذامي، رجل له صلاح، وله عشيرة. قال: فبلغ عثمان ذلك، فعاهد الله ألا يكلم الليث!".

وقال صالح لعمرو بن الحارث: "لا أدع الليث حتى يتولى لي، فقال عمرو: لا يفعل، فقال: لأضربن عنقه، فجاءه عمرو فحذره، فولي ديوان العطاء، وولي الجزيرة أيام أبي جعفر، وولي الديوان أيام المهدي")[26]ا. هـ.

سخاؤه وكرمُه:

أمَّا سخاء الليث بن سعد وكرمه فحدِّث به ولا حرج، فقد بلغ مبلغًا يندر وقوعُه من الناس، فكان ينفق آلاف الدنانير الذهبية وهو بها بسيط الكفِّ موطَّأ الأكناف، فإن أتاه سائلٌ اهتزَّ للعطاء واهتشَّ للبذل؛ بل إنه أجود بالخير من حاتم، (وإنه لمن قوم سنوا للناس الكرم، وفجروا ينابيع الندى، وبهم تعرف السخاء، وإليهم تنتهي السماحة، وبهم يقتدى في البذل).

(وقال ابن وهب: "كان الليث بن سعد يصل مالك بن أنس بمائه دينار في كل سنة، فكتب إليه مالك: إنَّ عليَّ دينًا، فبعث إليه بخمسمائة دينار، وكتب إليه مالك: إني أريد أن أدخل ابنتي على زوجها فأحب أن

(26) سير أعلام النبلاء (8/ 156). **وينظر**: تاريخ دمشق، لابن عساكر (50/ 367).

تبعث إليَّ شيئًا من عصفر، فبعث إليه ثلاثين حملًا من عصفر فصبغ لابنته وباع منه بخمسمائة دينار وبقي عنده فضلة".

وقال قتيبة بن سعيد: "كان اللَّيث يستغلُّ عشرين ألف دينار في كلِّ سنة".

وقال: "ما وجبت عليَّ زكاةٌ قط"(27).

وكان من الكرماء الأجواد، ويقال إن دخله كان هو كل سنة خمسة آلاف دينار، وكان يفرِّقها في الصِّلات وغيرها، وقال منصور بن عمار: "أتيت الليث فأعطاني ألف دينار وقال: صن بهذه الحكمة التي آتاك الله تعالى".

وجاءت امرأةٌ إلى الليث فقالت: "يا أبا الحارث، إنَّ ابنًا لي عليل واشتهى عسلًا"، فقال: "يا غلام، اعطها مرطًا من عسل"، والمرط عشرون ومائة رطل، وقال غيره: "سألت المرأة منا من عسل فأمر لها بزقٍّ، فقال له كاتبه: إنما سألت منا فقال: إنها سألتني على قدرها فأعطيناها على قدر السَّعة".

وقال الحارث بن مسكين: "اشترى قوم من الليث بن سعد ثمرة فاستغلوها فاستقالوه فأقالهم، ثم دعا بخريطة فيها أكياس فأمر لهم بخمسمائة دينار، فقال له الحارث ابنه في ذلك فقال: اللهمَّ غفرًا، إنهم كانوا أملوا فيه أملًا فأحببت أن أعوضهم من أملهم بهذا".

وقال شعيب بن الليث: "خرجت مع أبي حاجًّا فقدم المدينة، فبعث إليه مالك بن أنس بطبق رطب، فجعل على الطبق ألف دينار ورده إليه".

قال أبو رجاء قتيبة: "قفلنا مع الليث بن سعد من الإسكندرية، وكان معه ثلاث سفائن: سفينة فيها مطبخه، وسفينة فيها عياله، وسفينة فيها أضيافه".

(27) إنما لم تجب عليه زكاة لعدم بقاء النصاب عند حلول الحول، أي أن النصاب لا يبقى سنة.

وعن عبد الله بن صالح، قال: "صحبتُ الليثَ عشرين سنة، لا يتغدَّى ولا يتعشَّى إلا مع الناس، وكان لا يأكل إلا بلحم إلا أن يمرض".

وقال قتيبة: "كان الليث أكبرَ من ابن لهيعة بثلاث سنين، وإذا نظرت تقول: ذا ابن، وذا أب -يعني: ابن لهيعة الأب-.

قال: ولما احترقت كتب ابن لهيعة، بعث إليه الليث من الغد بألف دينار")[28].

مجالسُه الأربعة:

كان لليث بن سعد مجالس متعددة ومتنوعة العطاء، فهو ينفق ليلًا ونهارًا سرًّا وجهارًا، سواء كانت نفقته من ماله أو علمه أو مساعدة الناس بجاهه، لذلك تنوعت مجالسه وبورك له فيها، فرحمه الله رحمة واسعة.

قال أشهب بن عبد العزيز: "كان للَّيث بن سعد كل يوم أربعة مجالس يجلس فيها، أما أوَّلها فيجلس ليأتيه السلطان في نوائبه وحوائجه، وكان اللَّيث يغشاه السلطان فإن أنكر من القاضي أمرًا أو من السلطان كتب إلى أمير المؤمنين فيأتيه العزل، ويجلس لأصحاب الحديث، وكان يقول: نجحوا أصحاب الحوانيت فإن قلوبهم معلقة بأسواقهم، ويجلس للمسائل يغشاه الناس فيسألونه، ويجلس لحوائج الناس لا يسأله أحد من الناس فيرده، كبرت حاجته أو صغرت، قال: وكان يطعم الناس في الشتاء الهرائس بعسل النحل وسمن البقر، وفي الصيف سويق اللوز بالسكر"[29].

سَببُ اندثارِ مَذهبِه:

(28) وفيات الأعيان (4/ 127). **وينظر**: تاريخ دمشق لابن عساكر (50/ 346- 368)، وتاريخ بغداد (14/ 524)، والطبقات الكبرى (7/ 358)، والمعارف (1/ 505)، والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم (9/ 13)، وسير أعلام النبلاء (8/ 148).

(29) وفيات الأعيان (4/ 131). **وينظر**: سير أعلام النبلاء (8/ 150)، وتاريخ بغداد (14/ 524).

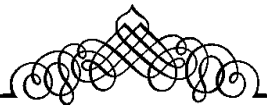

مما يؤسَف له هو اندثارُ مذهبٍ مثل هذا العلَم، وعدمُ نسخه وتداوله بين الأجيال، وقد ذكروا أن سبب ذلك هو ترك أصحاب الليث إشهاره، فكان سببًا في اندثاره.

قال الشافعي: "الليث أفقهُ من مالكٍ، إلا أن أصحابه لم يقوموا به"[30].

موقِفُ النَّاس مع جَنازتِه:

لقد خسر المسلمون في ذلك الزمان علَمًا من أعلامهم، وكان موته ثلمةً لا تعوض، وكسرًا لا ينجبر، وبموته ذهب العلم والجود، وفرح المبغض والحسود.

قال محمد بن عبد الرحمن: "كنت جالست الليث بن سعد وشهدت جنازته وأنا مع أبي، فما رأيت جنازةً أعظم منها ولا أكثر من أهلها، ورأيت كلهم عليهم الحزن والناس يعزِّي بعضهم بعضًا ويبكون، فقلت لأبي: يا أب، كل واحد من الناس صاحب الجنازة، فقال لي: يا بني كان عالِمًا سعيدًا كريمًا حسن الفعل كثير الأفضال، يا بني لا ترى مثله أبدًا"[31].

❊ ❊ ❊

(30) سير أعلام النبلاء (8/ 156)، وتاريخ بغداد (14/ 524).

(31) وفيات الأعيان (4/ 132). **وينظر**: تاريخ دمشق لابن عساكر (50/ 377)، وتاريخ بغداد (14/ 524).

عبدُ اللهِ بنُ المُبارَك رحمه الله:

نسبُه ومولدُه ووفاتُه:

هو الإمام الحافظ الفقيه، المجتهد المتقن المجاهد، شيخ المشرق والمغرب وما بينهما، أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح المروزي، مولى بني حنظلة.

ولد سنة ثماني عشرة ومائة، ومات بـ (هيت) منصرفًا من الغزو سنة إحدى وثمانين ومائة، وله ثلاث وستون سنة[32].

سعةُ عِلمه وفِقهه وقوَّة حافِظته:

كان ابن المبارك من جهابذة أهل النظر، ومن الرَّاسخين في العلم، وقد شهد له فطاحلة العلماء بأنه أوحد زمانه، فلا يقارعه محدث، ولا يدحض حجته مجادل، كيف لا؛ وقد أحصى مسائل العلم واستخرج مخبَّآته، ومحَّص حقائقه، ووقف على أغراضه، وجمع أشتاته، واستقصى أطرافه، وأحاط بأصوله وفروعه.

فعن صخر صديق ابن المبارك، قال: "كنَّا غلمانًا في الكتَّاب، فمررت أنا وابن المبارك ورجل يخطب، فخطب خطبة طويلة، فلما فرغ قال لي ابن المبارك: قد حفظتها، فسمعه رجل من القوم، فقال: هاتها، فأعادها عليهم ابن المبارك، وقد حفظها". وعن إبراهيم بن عبد الله بن الجنيد قال: "سمعت يحيى بن معين وذكروا عبد الله بن المبارك، فقال رجل: إنه لم يكن حافظًا، فقال يحيى بن معين: كان عبد الله بن المبارك رحمه الله كيسًا مستثبتًا ثقة، وكان عالِمًا، صحيح الحديث، وكانت كتبه التي حدث بها عشرين ألفًا أو واحدًا وعشرين ألفًا"[33].

---

(32) الطبقات الكبرى (7/ 263). **وينظر**: التاريخ الكبير للبخاري (5/ 212)، وتاريخ بغداد (11/ 388) و(11/ 407)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (32/ 396)، البداية والنهاية (10/ 177)، تاريخ الإسلام (4/ 882).

(33) تاريخ بغداد (11/ 404).

وعن يَحْيَى بن آدم، قال: "كنت إذا طلبت الدقيق من المسائل، فلم أجده في كتب ابن المبارك، آيست منه"(34).

وعن عمران بن موسى الطرطوسي، قال: "جاء رجل، فسأل سفيان الثوري عن مسألة، فقال له: من أين أنت؟ فقال: من أهل المشرق، قال: أو ليس عندكم أعلم أهل المشرق؟ قال: ومن هو يا أبا عبد الله؟ قال: عبد الله بن المبارك، قال: وهو أعلم أهل المشرق؟ قال: نعم، وأهل المغرب"(35).

وعن إسحاق بن محمد بن إبراهيم المروزي قال: "نعى ابن المبارك إلى سفيان بن عيينة فقال: رحمه الله لقد كان فقيهًا عالِمًا عابدًا زاهدًا سخيًّا شجاعًا شاعرًا".

وعن محمد بن المعتمر بن سليمان قال: "قلت لأبي: يا أبه من فقيه العرب؟ قال: سفيان الثوري، فلما مات سفيان قلت يا أبه من فقيه العرب؟ قال: عبد الله بن المبارك".

وقال أحمد بن محمد بن حنبل: "لم يكن في زمان ابن المبارك أحد أطلب للعلم منه، رحل إلى اليمن وإلى مصر والشام والبصرة والكوفة وكان من رواة العلم، وكان أهل ذاك، كتب عن الصغار والكبار كتب عن عبد الرحمن بن مهدي وكتب عن الفزاري وجمع أمرًا عظيمًا".

وعن محمد بن أبي خالد قال: "لما أتى ابن المبارك ابن جريج فاستنطقه فسمع كلامه فقال له: أين نشأت؟ قال: بخراسان، قال: ما ظننت خراسان تخرج مثلك، قال وأمكنه من كتبه".

وقال عبد الرحمن سمعت أبي يقول: "كان ابن المبارك ربع الدنيا بالرحلة في طلب الحديث، لم يدع اليمن ولا مصر ولا الشام ولا الجزيرة ولا البصرة ولا الكوفة"(36).

(34) تاريخ بغداد (11/ 392).
(35) تاريخ بغداد (11/ 400).

إمامة عبد اللَّه بن المبارك:

قال أبو عمر بن عبد البر: "أجمع العلماء على قبوله وجلالته وإمامته وعدله"(37).

وقال أبو أسامة: "كان ابن المبارك في أصحاب الحديث مثل أمير المؤمنين في الناس"(38).

وعن عبد الرحمن بن مهدي قال: "الأئمة أربعة، سفيان الثوري ومالك بن أنس وحماد بن زيد وابن المبارك".

وقال إسحاق الفزاري: "ابن المبارك إمام المسلمين، ورأيت أبا إسحاق بين يدي ابن المبارك قاعدًا يسائله، وقال ابن المبارك إمام العالمين"(39).

شجاعته وجهاده:

وأما شجاعة إمامنا عبد الله بن المبارك فشجاعة تبهر العقول وترهب القلوب؛ لأنه كان ثبت الجنان وقوي الأركان، يصدق في اللقاء فيرهب الأعداء، وإذا رأيت إقدامه قلت: هو من أسود الشرى؛ بل أشجع، وإذا نظرت إليه داخلًا في صف الكفار قلت: هذا سيل جارف لا يبقي ولا يذر، هذه هي شجاعة ابن المبارك، وأصحابه بها يشهدون:

=

(36) الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (1/ 262). **وينظر**: تاريخ بغداد (11/ 390)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (32/ 396)، البداية والنهاية (10/ 177)، وتاريخ الإسلام (4/ 882).

(37) البداية والنهاية (10/ 179).

(38) تاريخ بغداد (11/ 393).

(39) الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (1/ 265). **وينظر**: تاريخ بغداد (11/ 390)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (32/ 396)، والبداية والنهاية (10/ 177)، وتاريخ الإسلام (4/ 885).

فعن عبدة بن سليمان يعني المروزي، قال: "كنا في سرية مع عبد الله بن المبارك في بلاد الروم، فصادفنا العدو، فلما التقى الصفَّان خرج رجل من العدو فدعا إلى البراز، فخرج إليه رجل فقتله، ثم آخر فقتله، ثم دعا إلى البراز، فخرج إليه رجل، فطارده ساعةً، فطعنه فقتله، فازدحم إليه الناس، فكنت فيمن ازدحم إليه، فإذا هو يلثم وجهه بكمه، فأخذت بطرف كمه فمددته فإذا هو عبد الله بن المبارك، فقال: وأنت يا أبا عمرو ممن يشنع علينا"(40).

وعن عبد الله بن سنان قال: "كنت مع ابن المبارك والمعتمر بن سليمان بطرسوس، فصاح الناس النفير النفير قال: فخرج ابن المبارك والمعتمر وخرج الناس، فلما اصطف المسلمون والعدو خرج رجل من وأهل الروم يطلب البراز، فخرج إليه مسلم فشد العلج(41) على المسلم فقتل المسلم، حتى قتل ستة من المسلمين مبارزة فجعل يتبختر بين الصفين يطلب المبارزة لا يخرج إليه أحد، قال فالتفت إليَّ ابن المبارك فقال: يا عبد الله إن حدث بي حدث كذا وكذا، قال وحرك دابته وخرج العلج فعالج معه ساعة فقتل العلج، وطلب المبارزة فخرج إليه علج آخر فقتله، حتى قتل ستة من العلوج مبارزة وطلب البراز، فكأنهم كاعوا عنه فضرب دابته ونظر بين الصفين وغاب، فلم أشعر بشيء إذا أنا بابن المبارك في الموضع الذي كان فقال لي: يا عبد الله لئن حدَّثت بهذا أحدًا وأنا حي، فذكر كلمة، قال: فما حدثت به أحدًا وهو حي"(42).

اجتمع في ابن المبارك ما لم يجتمع عند غيره:

فعن الحسن بن عيسى قال: "اجتمع جماعة من أصحاب ابن المبارك مثل الفضل بن موسى ومخلد بن حسين ومحمد بن النضر، فقالوا: تعالوا حتى نعد خصال ابن المبارك من أبواب الخير، فقالوا: جمع العلم والفقه والأدب والنحو واللغة والزهد، والشعر والفصاحة والورع، والإنصاف وقيام الليل والعبادة والحج والغزو

(40) تاريخ بغداد (11/ 406). **وينظر**: تاريخ دمشق لابن عساكر (32/ 396)، والبداية والنهاية (10/ 177)، وتاريخ الإسلام (4/ 884).

(41) **الْعِلْجُ**: حِمَارُ الْوَحْشِ، وَبِهِ يُشَبَّهُ الرَّجُلُ الْأَعْجَمِيُّ. [مقاييس اللغة (4/ 121)].

(42) تاريخ دمشق، لابن عساكر (32/ 448).

والسخاء والشجاعة والفروسية والشدة في بدنه وترك الكلام في ما لا يعنيه وقلة الخلاف على أصحابه، وكان كثيرًا ما يتمثل:

وإذا صـــحبت فاصـــحب ماجـــدًا ذا حيـــــاء وعفـــــاف وكـــــرم
قولـــــه للشـــــيء لا إن قلـــــت لا وإذا قلـــت نعـــم قـــال نعـــم"[43]

ثَناءُ العُلَماء عليه:

عندما وجد العلماء أنَّ من أمامهم قد حوى العلوم في صدره، وكان من أهل الإتقان والعدالة والجهاد في سبيل الله؛ لم يتأخروا في الثناء عليه والأخذ عنه؛ بل وتمنِّي ملاقاته والجلوس معه وسماع الحديث منه، فجاءت أقوالهم متظافرة بمدحه والثناء عليه ثناء كبيرًا، وهذه أقوالهم فيه:

قال ابن عيينة: "نظرت في أمر الصحابة وأمر ابن المبارك، فما رأيت لهم عليه فضلًا إلا بصحبتهم النبي ﷺ وغزوهم معه"، وعن الفضيل بن عياض قال: "لما مات ابن المبارك قال ما بقي واحد يستحيا منه".

وقال: "سمعت العمري يقول ما رأيت في دهرنا هذا يصلح لهذا الأمر، إلا رجلًا أتى إلى منزلي فأقام عندي ثلاثًا يسألني عن غير ما يسألني عنه أهل هذا الدهر، فصيح اللسان إلا أن اللغة مشرقية، يكنى بأبي عبد الرحمن معه غلام يقال له سفير فقلنا له: هذا عبد الله بن المبارك، فقال هكذا ينبغي أن كان بقي أحد يصلح لهذا الأمر فذاك قال عبيد يعني الاقتداء بالعلم"[44].

وعن ابن مهدي، قال: "ما رأيت رجلًا أعلم بالحديث من سفيان الثوري، ولا أحسن عقلًا من مالك، ولا أقشف من شعبة، ولا أنصح لهذه الأمة من عبد الله بن المبارك"[45].

(43) تاريخ دمشق، لابن عساكر (32/ 429). **وينظر**: تاريخ الإسلام (4/ 886).
(44) تاريخ دمشق، لابن عساكر (32/ 415).
(45) تاريخ بغداد (11/ 398).

وعن محمد بن عبد العزيز بن أبي رزمة قال: "سمعت أبي يقول قال لي شعبة: عرفت ابن المبارك؟ قلت: نعم، قال: ما قدم علينا من ناحيته مثله".

وعن نعيم بن حماد قال: "قلت لعبد الرحمن بن مهدي: أيهما أفضل عندك ابن المبارك أو سفيان الثوري؟ فقال: ابن المبارك، فقلت: إن الناس يخالفونك، قال، إن الناس لم يجربوا، ما رأيت مثل ابن المبارك".

وقال سفيان الثوري: "لو جهدت جهدي أن أكون في السنة ثلاثة أيام على ما عليه ابن المبارك لم أقدر".

وعن علي بن الحسن بن شقيق عن شيخ بنيسابور: "أن ابن المبارك حضر يومًا عند الثوري فلم يتكلم بحرف حتى قام، فلما قام قال لأصحابه: وددت أني أقدر أن أكون مثله".

وعن أبي عثمان الكلبي قال: "قال لي الأوزاعي: رأيت عبد الله ابن المبارك؟ قلت: لا، قال: لو رأيته لقرَّت عينك".

وعن أحمد بن سنان الواسطي قال: "بلغني أن ابن المبارك أتى حماد بن زيد في أول الأمر قال فنظر إليه فأعجبه نحوه، فقال له: من أين أنت؟ قال: من أهل خراسان، قال: من أي خراسان؟ قال: من مرو، قال: تعرف رجلًا -أو فتى يقال- له عبد الله بن المبارك؟ قال: نعم قال: ما فعل؟ قال: هو الذي تخاطب، قال فسلم عليه ورحب به".

وعن عبيد بن جناد قال: "قال لي عطاء بن مسلم: يا عبيد هل رأيت ابن المبارك؟ قلت: نعم، قال: ما رأيت بعينيك مثله ولا ترى بعينيك مثله حتى تموت"[46].

قصَّة عبد اللَّه بن المبارك مع هديَّة أبيه له:

(46) الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (1/ 265). **وينظر**: تاريخ بغداد (11/ 390)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (32/ 396)، والبداية والنهاية (10/ 177)، وتاريخ الإسلام (4/ 884).

قال عبد الله بن سنان الخراساني: "كان لعبد الله بن المبارك أخوات وكان لأبيه المبارك بستان بمرو، فنحَلَه عبد الله، فلما كبر عبد الله وترعرع وجالس أهل العلم وطلب العلم جاء إلى أخواته فقال لهن: إن أبانا كان صنع أمرًا لم ينبغ له أن يصنعه نحلني هذا البستان دونكم، وليس أحد أحق أن يخرج أباه مما جعل فيه مني، فقد رددت هذا البستان وجعلته ميراثًا بيننا على كتاب الله ﷻ، فحللوا أبانا مما كان دخل فيه، فقلن له: أنت في حل وأبونا في حل وهو لك كما كان والدنا نحلك، قال: لا، ولكنه ميراث بيننا فحللوه: فحللوه، قال فتزوج عبد الله فولد له ابن، فنحلن الأخوات ابن عبد الله حصصهن من البستان، قال فمات الغلام فورثه عبد الله فرجع إليه البستان كما كان أبوه نحله"(47).

كَثرةُ عبادته وحُسنُ خُلُقه:

وقد كان الإمام نبيل النفس أغر المكارم، مع حسن عبادة وشدة ورع، فإذا رأيت عطاءه قلت كأنه مخلوق من طينة الكرم، وإذا رأيت صنيعه في عبادته قلت: كأنه رأى الفزع الأكبر من شدة خشوعه، وجمال وقوفه بين يدي الله، وقد جاءت أقوال الأئمة كثيرة في وصف أعماله وجمال أسلوبه في تعليم الناس، والإرفاق بهم.

فعن مُحَمَّد بن حميد، قَالَ: "عطس رجلٌ عند ابن المبارك، قَالَ: فقَالَ له ابن المبارك: أيش يَقُول الرجل إذا عطس؟ قَالَ: يَقُول: الحمد لله، قَالَ: فَقَال له ابن المبارك: يرحمك اللَّه، قَالَ: فعجبنا كلنا من حسن أدبه".

وعن نعيم بن حماد، قال: "كان عبد اللَّه بن المبارك يكثر الجلوس في بيته، فقيل له: ألا تستوحش؟ فَقَالَ: كيف أستوحش وأنا مع النَّبِيِّ ﷺ وأصحابه"(48).

وقال عبد الله بن سنان الخراساني: "غدوت أنا وصاحب لي إلى عبد الله بن المبارك في يوم شديد البرد فاستأذنا، فخرج إلينا وعليه قباء طاق فقال: جئتم من موضع كذا هذه الساعة فقعد معنا، فظننا أنه قعد مقدار ما جئنا من موضعنا حتى بلغناه ليصيبه من البرد كما أصابنا"(49).

(47) الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (1/ 268).
(48) تاريخ بغداد (11/ 391).

وقال علي بن الحسن بن شقيق: "لم أر أحدًا من الناس أقرأ من ابن المبارك، ولا أحسن قراءة ولا أكثر صلاة منه، كان يصلي الليل كله في السفر وغيره، وكان يرتل القراءة ويمدها، وإنما ترك النوم في المحمل لأنه كان يصلي وكان الناس لا يدرون".

وقال: "أخبرني محمد بن أعين وكان صاحب ابن المبارك في الأسفار وكان كريمًا عليه، قال كان ذات ليلة ونحن في غزاة الروم ذهب ليضع رأسه ليريني أنَّه ينام، فقلت أنا برمحي في يدي قبضت عليه ووضعت رأسي على الرمح، كأني أنام كذلك قال فظنَّ إني قد نمت فقام فأخذ في صلاته، فلم يزل كذلك حتى طلع الفجر وأنا أرمقه، فلما طلع الفجر جاء فأيقظني وظنَّ إني نائم وقال: يا محمد فقلت إني لم أنم قال: فلمَّا سمعها مني ما رأيته بعد ذلك يكلمني ولا ينبسط إليَّ في شيء من غزاته كلها، كأنه لم يعجبه ذاك مني لما فطنت له من العمل فلم أزل أعرفها فيه حتى مات، ولم أر رجلًا قط أسرَّ بالخير منه".

وعن عبدة بن سليمان قال: "كان ابن المبارك إذا صلى العصر أتى مسجد المصيصة -يعني مسجد الجامع- فاستقبل القبلة يذكر الله ولم يكلم أحدًا حتى تغرب الشمس"(50).

كرمُه وسخاؤه:

كان ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ معروفًا بكثرة التبرع وغزرة العطاء، فكان ينفق إنفاق مَن لا يخشى الفقر، فيعطي العلماء ويقضي حوائج الفقراء، حتى لو كلفه أن يبذل نفقة الحج لهم، وهذا ما فعل كما سيأتي، وإنه ليباري الريح جودًا، كيف لا ويداه تتراوحان بالمعروف.

"وخرج مرة إلى الحج فاجتاز ببعض البلاد، فمات طائر معهم فأمر بإلقائه على مزبلة هناك، وسار أصحابه أمامه وتخلف هو وراءهم، فلما مر بالمزبلة إذا جارية قد خرجت من دار قريبة منها فأخذت ذلك

=

(49) الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (1/ 268). **وينظر**: تاريخ دمشق لابن عساكر (32/ 396)، والبداية والنهاية (10/ 177)، وتاريخ الإسلام (4/ 887).

(50) الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (1/ 266).

الطائر الميت، ثم لفته ثم أسرعت به إلى الدار، فجاء فسألها عن أمرها وأخذها الميتة، فقالت: أنا وأخي هنا ليس لنا شيء إلا هذا الإزار، وليس لنا قوت إلا ما يلقى على هذه المزبلة، وقد حلت لنا الميتة منذ أيام، وكان أبونا له مال فظلم وأخذ ماله وقتل، فأمر ابن المبارك برد الأحمال، وقال لوكيله: كم معك من النفقة؟ قال: ألف دينار، فقال: عد منها عشرين دينارًا تكفينا إلى مرو وأعطها الباقي، فهذا أفضل من حجنا في هذا العام، ثم رجع"(51).

وعن عمر بن حفص الصوفي، بِمنبج، قال: "خرج ابن المبارك من بغداد يريد المصيصة، فصحبه الصوفية، فقال لهم: أنتم لكم أنفس تحتشمون أن ينفق عليكم، يا غلام هات الطست، فألقى على الطست منديلًا ثم قال: يلقي كل رجل منكم تحت المنديل ما معه، فجعل الرجل يلقي عشرة دراهم والرجل يلقي عشرين، فأنفق عليهم إلى المصيصة، فلما بلغ المصيصة، قال: هذه بلاد نفير، فنقسم ما بقي، فجعل يعطي الرجل عشرين دينارًا، فيَقُول: يا أبا عبد الرحمن إنما أعطيت عشرين درهمًا، فيَقُول: وما تنكر أن يبارك اللَّه للغازي في نفقته!"(52).

وعن سلمة بن سليمان، قال: "جاء رجل إلى عبد اللَّه بن المبارك فسأله أن يقضي دينًا عليه، فكتب له إلى وكيل له، فلما ورد عليه الكتاب، قال له الوكيل: كم الدين الذي سألت فيه عبد اللَّه أن يقضيه عنك؟ قال: سبع مائة درهم، فكتب إلى عبد اللَّه إن هذا الرجل سألك أن تقضي عنه سبع مائة درهم، وكتبت له بسبعة آلاف، وقد فنيت الغلات، فكتب إليه عبد اللَّه: إن كانت الغلات قد فنيت فإن العمر أيضًا قد فني، فأجز له ما سبق به قلمي لَهُ".

وعن مُحَمَّد بن عيسى قال: "كان عبد اللَّه بن المبارك كثير الاختلاف إلى طرسوس، وكان ينزل الرقة في خان، فكان شاب يختلف إليه ويقوم بحوائجه، ويسمع منه الحديث، قَالَ: فقدم عبد اللَّه إلى الرقة مرة فلم ير ذلك الشاب، وكان مستعجلًا، فخرج في النفير فلما قفل من غزوته، ورجع الرقة سأل عن الشاب،

(51) البداية والنهاية (10/ 178).
(52) تاريخ بغداد (11/ 394).

فقالُوا: إنه محبوس لدَينٍ ركبه، فقَال عبد اللَّه: وكم مبلغ دينه؟ فقالُوا: عشرة آلاف درهم، فلم يزل يستقصي حتى دل على صاحب المال، فدعا به ليلًا ووزن له عشرة آلاف درهم، وحلفه أن لا يخبر أحدًا ما دام عبد اللَّه حيًّا، وقال: إذا أصبحت، فأخرج الرجل من الحبس، وأدلج عبد اللَّه، فأخرج الفتى من الحبس، وقيل له: عبد اللَّه بن المبارك كان هاهنا، وكان يذكرك وقد خرج، فخرج الفتى في أثره فلحقه على مرحلتين أو ثلاث من الرقة، فقال: يا فتى أين كنت لم أرك في الخان؟ قال: نعم يا أبا عبد الرحمن كنت محبوسًا بدَينٍ، قال: فكيف كان سبب خلاصك، قال: جاء رجل فقضى ديني، ولم أعلم له حتى أخرجت من الحبس، فقال له عبد اللَّه: يا فتى احمد اللَّه على ما وفق لك من قضاء دينك، فلم يخبر ذلك الرجل أحدًا إلا بعد موت عبد اللَّه"[53].

وعن عبد الرحمن الأحول قال سمعت ابن المبارك يقول: "لما أردت أن أرتحل من عند معمر بعثت إليه بوصيف وألف درهم، فلما شددت متاعي لأرتحل جاءني شاب من أصحاب الحديث، فذكر لي حديثًا عن معمر لم أسمعه فقال لي: سله قبل أن ترتحل فقلت: لا آتي الشيخ بعد ما وصلته أسأله فيحدثني به على غير ما كان يحدثني به قبل أن أصله[54]، فارتحل وما سأله عنه".

وعن موسى بن المبارك الرازي قال: "شكا أبو أسامة إلى ابن المبارك دَينًا عليه وسأله أن يكلِّم له بعض إخوانه، قال فعمد ابن المبارك إلى خمسمائة درهم من ماله فوجهَّها ليلًا مع رسول له، وتقدم إلى الرسول أن لا يعلمه من وجَّهه إليه، قال فأتاه الرسول فدفع إليه الخمسمائة فقبضها منه وظن أنها جاءته من مكان آخر، قال ثم إن أبا أسامة لقي عبد الله بن المبارك بعد ذلك فذكره الحاجة فسكت عنه ابن المبارك فأعاد عليه مرتين أو ثلاثًا، فقال له ابن المبارك: فلعلها قد أتتك".

(53) تاريخ بغداد (11/ 395).

(54) **قلت**: أراد ألا يطلب منه سماع الحديث بعدما أعطاه المال حتى لا يكون تحديثه من أجله.

وعن عبدة بن سليمان قال: "كنا مع ابن المبارك بالمصيصة قال: فأول ما جاء أهديت إليه جام لبأ على يد بني لي فقبل منه وصر في كفه دينارًا، ثم لقيته في السوق فقلت با أبا عبد الرحمن وجهت إليك، فقال اسكت لا تتكلم بشيء، وكنت قد كتبت قبل ذلك حديثًا كثيرًا"(55).

حُبُّ الناس لعبد اللَّه بن المبارك:

قال إسماعيل بن عياش: "ما على وجه الأرض مثله، وما أعلم خصلة من الخير إلا وقد جعلها الله في ابن المبارك، ولقد حدثني أصحابي أنهم صحبوه من مصر إلى مكة، فكان يطعمهم الخبيص، وهو الدهر صائم. وقدم مرَّة الرقة وبها هارون الرشيد، فلما دخلها احتفل الناس به وازدحم الناس حوله، فأشرفت أم ولد للرشيد من قصر هناك فقالت: "ما للناس؟ فقيل لها: قدم رجل من علماء خراسان يقال له عبد الله بن المبارك فانجفل الناس إليه. فقالت المرأة: هذا هو الملك، لا ملك هارون الرشيد الذي يجمع الناس عليه بالسوط والعصا والرغبة والرهبة"(56).

تواضع ابن المبارك:

عن حجاج بن حمزة قال: "أخبرني زنيج صاحب الطيالسة قال أخبرني فلان -رجل صالح- قال رأيت ابن المبارك وعلى عاتقه طن من حطب يدخل خان قريش".

وعنه قال: "أخبرني محمد بن حماد الطلاس قال: أخبرني من رأى ابن المبارك حافيًا بلا خف ولا نعل، في شرى حوائجه في السوق".

(55) الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (1/ 276). **وينظر**: تاريخ بغداد (11/ 390)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (32/ 396)، والبداية والنهاية (10/ 177)، وتاريخ الإسلام (4/ 887).
(56) البداية والنهاية (10/ 178).

وعن عيسى بن يونس يقول: "كنا بأرض الروم أنا وابن المبارك، فربما استحييت من خدمة ابن المبارك إيَّاي يأخذ بركابي، فإذا نزلنا قدم لنا الخبيص، فيلقمي ويقعد فيسألني عن الحديث ويكتب، فأقول يا شيخ أما آن لك أن تشبع؟ فيقول: ومن يشبع من هذا الشأن"(57).

قصَّة عجيبة وقعت لابن المبارك كانت سببَ هدايته:

عن حسين بن الحسن قال: "سئل ابن المبارك وأنا حاضر عن أول زهده فقال إني كنت يومًا في بستان وأنا شاب مع جماعة من أترابي وذلك في وقت الفواكه، فأكلنا وشربنا وكنت مولعًا بضرب العود، فقمت في بعض الليل وإذا غصن يتحرَّك عند رأسي فأخذت العود لأضرب به فإذا بالعود ينطق وهو يقول: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ**﴾ [الحديد: 16] قال فضربت بالعود الأرض فكسرته، وصرفت ما عندي من جميع الأمور التي كنت عليها مما شغل عن الله، وجاء التوفيق من الله تعالى فكان ما سهل لنا من الخير من فضل الله تعالى ورحمته"(58).

ابنُ المبارك الوَرِع:

كان ورع ابن المبارك يُضرَب به المثل، فإنه لا يقبل ما ليس له، وإن كلَّفه ذلك أن ينفق أكثر منه بكثير.

فعن الحسن بن عرفة، قال: "قال لي ابن المبارك: استعرت قلمًا بأرض الشام، فذهب عليَّ أن أردَّه إلى صاحبه، فلما قدمت مرو ونظرت فإذا هو معي، فرجعت يا أبا علي الحسن بن عرفة إلى أرض الشام حتى رددته على صاحبه"(59).

(57) الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (1/ 278).
(58) تاريخ دمشق، لابن عساكر (32/ 406).
(59) تاريخ بغداد (11/ 407).

وعن علي بن الفضيل، قال: "سمعت أبي وهو يقول لابن المبارك: يا ابن المبارك أنت تأمرنا بالزهد، والتقلل، والبلغة، ونراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام، كيف ذا؟ فقال ابن المبارك: يا أبا علي إنما أفعل ذا لأصون به وجهي، وأكرم به عرضي، وأستعين به على طاعة ربي، لا أرى لله حقًّا إلا سارعت إليه حتى أقوم به. فقال له الفضيل: يا ابن المبارك ما أحسن ذا، إن تمَّ ذا"(60).

وعن عبد الرحمن الأحول قال: "سمعت ابن المبارك يقول بينا أنا في مرحلة بين الكوفة ومكة إذ جاءني رجل معه حبل قت فجلس بين يدي فقال يا أبا عبد الرحمن أنا في هذه القرية ليس فيها حانوت غير حانوتي يمر بي المار فلو أبيت بهذا الحبل إلا مائة درهم، لم يجد بدًّا من أن يشتريه مني أفأبيعه؟ قال فالتفت إلى رفقائي فقلت شدوا متاعكم قال فارتحلت ولم أجبه بشيء، قال فلما صرنا في المرحلة الأخرى قلت لرفقائي: تدرون لم سكت عن صاحب الحبل؟ قالوا: لا، قال كرهت أن أقول له لا تبعه، فأحرم عليه شيئًا قد أحله الله ﷻ له وكرهت أن أقول له بعه فيقطع أيدي الناس وأرجلهم بكلامي، فارتحلت وسكت".

وعن عبد الله بن حوشب الطائفي قال: "سمعت أبي يقول: زاملت ابن المبارك -أو قال كنت رفيقًا له، شك أبو عبد الله- فذكر يومًا قصيدة لسليمان العدوي فقال لي: يا أبا محمد هذه أحب إلى من قصر ابن طاهر، ثم ذكر يومًا كلامًا من هذه الرقائق فقال لي يا أبا محمد ضيعنا أيامنا في الإيلاء والظهار وتركنا هذا العلم".

وعن عبدة بن سليمان قال: "كنا مع ابن المبارك في أرض الروم فبينا نحن نسير ذات ليلة والسماء من فوقنا والبلة من تحتنا، فقال ابن المبارك: يا أبا محمد أفنينا أيامنا في الإيلاء والظهار عن مثل هذه الليالي، فلما أصبحنا نزلنا على عيني ماء فجعل الناس يتبادرون ويسقون دوابهم، فقدم ابن المبارك دابته فضرب رجل

(60) تاريخ بغداد (11/ 397).

من أهل الثغر وجه دابة ابن المبارك وقدم دابته، فقال: يا أبا محمد المنافسة في مثل هذا الموضع ليس في الموضع الذي إذا رأونا قالوا وسعوا لأبي عبد الرحمن، ارتفع يا أبا عبد الرحمن"[61].

ابنُ المبارك لا يحدِّث الصبيان:

عن الحسن بن عرفة قال: "قدم عبد الله بن المبارك البصرة فدخلت عليه فسألته أن يحدثني فأبى، وقال أنت صبي، قال الحسن بن عرفة فأتيت حماد بن زيد فقلت يا أبا إسماعيل دخلت على ابن المبارك فأبى أن يحدثني، فقال يا جارية هاتي بخفي وطيلساني، وخرج معي متوكئًا على يدي حتى دخلنا على ابن المبارك فجلس معه على السرير، فتحدثا ساعة ثم قال له حماد يا أبا عبد الرحمن لم لا تحدث هذا الغلام، قال ابن المبارك يا أبا إسماعيل هو صبي لا يفقه ما يحمله، قال له حماد: حدثه يا أبا عبد الرحمن فلعله والله أن يكون آخر من يحدث عنك في الدنيا، قال الحسن بن عرفة: رحم الله حمادًا ما كان أحسن فراسته أنا آخر من حدث عن ابن المبارك، قال الحسن بن عرفة فأقام ابن المبارك بالبصرة أيامًا ثم خرج إلى الحج، فخرجت بخروجه فلما قدم بنا مكة أتى الكعبة فطاف بها سبعًا وطفت بطوافه، ثم صلى خلف المقام ركعتين فصليت بصلاته، ثم أتى زمزم فاستقى دلوًا فصبه في ركوة معه، ثم خرج فوقف على باب زمزم ونادى بأعلى صوته: يا أهل مكة يا أهل مكة من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا عبد الله بن المبارك المروزي، حدثني عبد الله بن أبي الموال مكيكم عن أبي الزبير عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَاءُ زَمْزَمَ، لِمَا شُرِبَ لَهُ**»[62]، ثم قال ابن المبارك: اللهمَّ هذا لعطش يوم القيامة ثم شربه، قال الحسن بن عرفة: فما رأيت أكثر شربًا من يومئذ"[63].

من كلام ابنِ المبارك وحِكَمه:

(61) الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (1/ 279).
(62) أخرجه ابن ماجه (2/ 1018) برقم: 3062.
(63) تاريخ دمشق، لابن عساكر (32/ 438).

قال ابن المبارك: "إن البصراء لا يأمنون من أربع خصال، ذنب قد مضى لا يُدرى ما يصنع الرب فيه، وعمر قد بقي لا يُدرى ماذا فيه من الهلكات، وفضل قد أعطي لعله مكر واستدراج، وضلالة قد زينت له فيراها هدى، ومن زيغ القلب ساعة أسرع من طرفة عين قد يسلب دينه وهو لا يشعر"(64).

وقال: "لن يخلو المؤمن من ثلاثة، من نفس تدعوه، وشيطان يبغيه، ومنافق يحسده"(65).

وعن الحسن بن عيسى قال: "سئل ابن المبارك فقيل له: من الناس؟ قال: العلماء، قيل: فمن الملوك؟ قال: الزهاد، قيل له: فمن السفلة؟ قال: الذي يأكل بدينه، قيل: فمن الغوغاء؟ قال: خزيمة بن خازم وأصحابه، قيل له: فمن الدَّنِيء؟ قال: الذي يذكر غلاء السعر عند الضيف".

وقال: "من طلب العلم تعلم العلم ومن تعلم العلم خاف من الذنب، ومن خاف من الذنب هرب من الذنب، ومن هرب من الذنب نجا من الحساب"(66).

وقال عبد الله بن عاصم الهروي: "إنَّ شيخًا دخل على عبد الله بن المبارك فرآه على وسادة خشنة مرتفعة، قال فأردت أن أقول له فرأيت من الخشية حتى رحمته، فإذا هو يقول قال الله ﷻ: ﴿**قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ**﴾ [النور: 30]، قال لم يرض الله أن ينظر إلى محاسن المرأة فكيف بمن يزني بها، وقال الله ﷻ: ﴿**وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ**﴾ [المطففين: 1] في الكيل والوزن فكيف بمن يأخذ المال كله، وقال الله تعالى: ﴿**وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا**﴾ [الحجرات: 12]، ونحو هذا فكيف بمن يقتله قال فرحمته، وما رأيته فيه فلم أقل له شيئًا"(67).

وقال: "من بخل بالعلم ابتلي بثلاث، إما بموت أو بنسيان أو بلحوق سلطان".

---

(64) تاريخ دمشق لابن عساكر (32/ 437)، وتاريخ الإسلام (4/ 889).
(65) تاريخ دمشق، لابن عساكر (32/ 465).
(66) تاريخ دمشق، لابن عساكر (32/ 466).
(67) تاريخ دمشق، لابن عساكر (32/ 439).

وقال: "الحبر في الثياب خلوق العلماء"[68].

وقال: "من استخف بالعلماء ذهبت آخرته، ومن استخف بالأمراء ذهبت دنياه، ومن استخف بالإخوان ذهبت مروءته"[69].

وقيل لابن المبارك كم تكتب؟ قال: "لعل الكلمة التي أنتفع بها لم أكتبها بعد".

وقيل لابن المبارك ما التواضع؟ قال: "التكبر على الأغنياء وقيل لابن المبارك أوصني، قال: اعرف قدرك".

وقال: "لأن أتصدق بدرهم من حلالٍ أحب إليَّ من أن أتصدق بستين درهمًا من شبهة".

وقيل لابن المبارك لو أتيت هذا الرجل فوعظته؟ قال: "لا، ليس الآمر الناهي من دخل عليهم، إنما الآمر الناهي من جانبهم"[70].

وعن عبد الله بن المبارك أنه كان يقول: "سخاء النفس عما في أيدي الناس أكثر من سخاء النفس بالبذل والقناعة والرضا أكثر من مروءة الإعطاء"[71].

وقال: "إذا تأكد الإخاء قبح الثناء"[72].

بذله للمال من أجل الحديث:

(68) تاريخ دمشق، لابن عساكر (32/ 442).
(69) تاريخ دمشق، لابن عساكر (32/ 444).
(70) الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (1/ 280).
(71) تاريخ دمشق، لابن عساكر (32/ 463).
(72) تاريخ دمشق، لابن عساكر (32/ 469).

قال ابن المبارك: "كان الربيع بن أنس مختفيًا عند حائك، فأتيته فجهدت أن يأذن لي عليه فأبى، فأعطيته أربعين درهمًا فأذن لي فدخلت عليه، فسمعت منه أربعين حديثًا، ثم عدت فجهدت أن يأذنَ لي فأبى فتركته"(73).

كلامٌ وقع بين ابن المبارك والأوزاعي في أبي حنيفة:

عن عبد الله بن المبارك قال: "قدمت الشام على الأوزاعي فرأيته ببيروت فقال لي: يا خراساني من هذا الذي خرج بالكوفة، يعني أبا حنيفة فرجعت إلى بيتي، فأقبلت على كتب أبي حنيفة فأخرجت منها مسائل من جياد المسائل، وبقيت في ذلك ثلاثة أيام فجئته يوم الثالث، وهو مؤذن مسجدهم وإمامهم، والكتاب في يدي، فقال: أي شيء هذا الكتاب فناولته فنظر في مسألة منها وقعت عليها، قال النعمان بن ثابت، فما زال قائمًا بعدما أذَّن، حتى قرأ صدرًا من الكتاب ثم وضع الكتاب في كمِّه، ثم أقام وصلَّى، ثم أخرج الكتاب حتى أتى عليها فقال: لي يا خراساني من النعمان بن ثابت هذا؟ قلت: شيخ لقيه بالعراق، فقال هذا نبيل من المشايخ اذهب فاستكثر منه، قلت هذا أبو حنيفة الذي نهيتني عنه"(74).

الشعر الذي قيل في ابن المبارك:

قال أبو بكر ابن أسلم بن سليمان: رحل أبي من نيسابور إلى مرو ليكتب عن ابن المبارك، فقال أبيات شعر أنشدها لابن المبارك.

خلفت عرسي يوم السير باكية ... يا ابن المبارك تبكيني برنَّات
خلفتها سحرًا في النوم لم أرها ... ففي فؤادي منها شبه كيَّات
أهلي وعرسي وصبياني رفضتهم ... وسرت نحوك في تلك المفازات
أخاف والله قطَّاع الطريق به ... وما آمنت بها من لدغ حيَّات

(73) الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (1/ 264).
(74) تاريخ دمشق، لابن عساكر (32/ 399).

مستوفزات بها رقش مشوهة ... أخاف صولتها في كلِّ ساعاتي
اجلس لنا كل يوم ساعة بكرًا ... إن خف ذاك وإلا بالعشيَّات
يا أهل مرو أعِينونا بكفِّكم ... عنَّا وإلا رميناكم بأبيات
لا تضجرونا فإنَّا معشر صبر ... وليس نرجو سوى ربِّ السموات[75]

وقال عمار بن الحسن يمدح ابن المبارك:

إذا سار عبد الله من مروٍ ليلة ... فقد سار عنها نورها وجمالها
إذا ذكر الأحباب في كلِّ بلدة ... فهم أنجم فيها وأنت هلالها[76]

الشعر الذي قاله ابن المبارك:

قال ابن المبارك:

شغلي بقوم مضوا كانوا لنا سلفًا ... وللرسول مع الفرقان أعوانا
فما الدخول عليهم في الذي عملوا ... بالطعن مني وقد فرطت عصيانا
فلا أسب أبا بكر ولا عمرًا ... ولا أسب -معاذ الله- عثمانا
ولا ابن عم رسول الله اشتمه ... حتى ألبس تحت الترب أكفانا
ولا الزبير حواري الرسول ولا ... أهدي لطلحة شتمًا عز أو هانا
ولا أقول عليٌّ في السَّحاب إذا ... قد قلت والله ظلمًا ثمَّ عدوانا
ولا أقول بقول الجهم إنَّ له ... قولًا يضارع أهل الشرك أحيانا
ولا أقول تخلَّى من خليقته ... ربُّ العباد وولَّى الأمر شيطانا
ما قال فرعون هذا في تجبُّره ... فرعون موسى ولا هامان طغيانا
لكن على ملَّة الإسلام ليس لنا ... اسم سواه -فداك الله- سمَّانا

(75) الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (1/ 275).
(76) تاريخ دمشق، لابن عساكر (32/ 434).

إنَّ الجماعـــة حبـــلُ الله فاعتصـــموا بهـا هـي العـروة الـوثقى لمـن دانـا[77]

وقال:

اغتـــنم ركعتـــين زلفـــى إلى الله إذا كنـــت فارغًـــا مســـتريحا
وإذا مـــا هممـــت بـــالزُّور والبـــا طـــل فاجعـــل مكانَـــه تســـبيحا
فاغتنـــام السُّـــكوت للمـــرء فضـــلٌ وإن كـــان للكـــلام فصـــيحا[78]

وعن عبد السلام بن صالح قال: سمع ابن المبارك رجلًا يتكلَّم بما لا يعنيه فقال:

تعاهـــد لســـانك إن اللســـان ســـريع إلى المـــرء في قتلـــه
وهـــذا اللســـان يزيـــد الفـــؤاد يـــدلُّ الرجـــال علـــى عقلـــه[79]

وقال:

أدَّبـــت نفســـي فمـــا وجـــدت بهـــا مـــن بعـــد تقـــوى الله مـــن أدب
في كـــل حالاتهـــا وإن قصـــرت أفضـــل مـــن صـــمتها عـــن الكـــذب
وغيبـــة النـــاس إن غيبـــتهم حرمهـــا ذو الجـــلال في الكتـــب
إن كـــان مـــن فضـــة كلامـــك يـــا نفـــس فـــإن الســـكوت مـــن ذهـــب

وقال:

أحـــبُّ الصـــالحين ولســـت مـــنهم وأبغـــض الطـــالحين وأنـــا شـــر مـــنهم

ثم أنشأ عبد الله يقول:

(77) تاريخ دمشق، لابن عساكر (32/ 450). **وينظر**: تاريخ الإسلام (4/ 898).
(78) تاريخ دمشق، لابن عساكر (32/ 459).
(79) تاريخ دمشق، لابن عساكر (32/ 461).

الصمت أزين للفتى ... من منطق في غير حينه
والصدق أجمل للفتى ... في القول عندي من يمينه
وعلى الفتى بوقاره ... سمة تلوح على جبينه
فمن الذي يخفى عليك ... إذا نظرت إلى قرينه
رُبَّ امرئٍ متيقن ... غلب الشَّقاء على يقينه
فأزاله عن رأيه ... فابتاع دنياه بدينه[80]

وقال:

ما ذاق طعم الغنى من لا قنوع له ... ولن يرى قانعًا ما عاش مفتقرا
والعرف من يأته يحمد عواقبه ... ما ضاع عرف وإن أوليته حجرا[81]

وأنشد قائلًا:

رأيت الذنوبَ تميت القلوب ... ويورثها الذلَّ إدمانُها
امهد لنفسك قبل الممات ... وخير لنفسك عصيانُها
وهل بدَّل الدِّين إلا الملوك ... وأحبار سوءٍ ورهبانُها
لقد رتع القوم في جيفةٍ ... تبين لذي العقل إنتانُها[82]

وعن الحسن بن حماد العطار قال: "سمعت ابن المبارك وسأله حاتم بن عبد الله العلاف حين أراد الخروج إلى مكة فقال: أما توصينا أما تقوينا، فقال عبد الله بن المبارك:

إذا صاحبت في الأسفار قومًا ... فكن لهم كذي الرَّحِم الشفيق

(80) تاريخ دمشق، لابن عساكر (32/ 462).
(81) تاريخ دمشق، لابن عساكر (32/ 463).
(82) تاريخ دمشق، لابن عساكر (32/ 467).

بعيب النفس ذا بصر وعلم ... غني النفس عن عيب الرفيق
ولا تأخذ بعثرة كل قوم ... ولكن قل هلمَّ إلى الطريق
فإن تأخذ بعثرتهم يقلوا ... وتبقى في الزمان بلا صديق"[83]

ردُّ ابن المبارك على عابد الحرمين:

عن محمد بن إبراهيم بن أبي سكينة قال: "أملى علي عبد الله بن المبارك هذه الأبيات بطرسوس وودعته للخروج وأنفذها معي إلى الفضيل بن عياض في سنة سبعين ومائة.

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك في العبادة تلعبُ
من كان يخضب خده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضَّب
أو كان يتعب خيله في باطلٍ ... فخيولنا يوم الصبيحة تتعبُ
ريحُ العبير لكم ونحن عبيرنا ... رهج السنابك والغبار الأطيبُ
ولقد أتانا من مقال نبينا ... قول صحيح صادق لا يكذبُ
لا يستوي وغبار خيل الله في ... أنف امرئٍ ودخان نار تلهبُ
هذا كتاب الله ينطق بيننا ... ليس الشَّهيد بميت لا يكذبُ

فلقيت الفضيل بن عياض في مسجد الحرام بكتابه، فلما قرأه ذرفت عيناه ثم قال: صدق أبو عبد الرحمن ونصحني"[84].

رؤى المنام في عبد اللَّه بن المبارك بعد موته:

(83) تاريخ دمشق، لابن عساكر (32/ 469).

(84) تاريخ دمشق لابن عساكر (32/ 449)، وتاريخ الإسلام (4/ 892).

الرؤيا الصالحة من المبشرات التي بشر بها نبينا محمد ﷺ، فعن أبي هريرة، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إِلَّا المُبَشِّرَاتُ**» قَالُوا: وَمَا المُبَشِّرَاتُ؟ قَالَ: «**الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ**»(85). ولعلَّ كثرة الرؤى الجميلة التي رآها الناس في عبد الله بن المبارك هي من المبشرات بالخير له.

قال أبو حاتم الفربري: "رأيت عبد الله بن المبارك في المنام واقفًا على باب الجنة بيده مفتاح، فقلت له: يا أبا عبد الرحمن ما يوقفك ها هنا قال هذا مفتاح الجنة دفعه إليَّ محمد ﷺ، وقال حتى أزور الرب فكن أميني في السماء كما كنت أميني في الأرض"(86).

وعن إسماعيل بن إبراهيم بن أبي جعفر المصيصي قال: "رأيت الحارث بن عطية في النوم فقلت ما فعل الله بك يا أبا عبد الله؟ قال: غفر لي، قلت: فابن المبارك؟ قال: بخ بخ إن ابن المبارك في عليين ممن يلج على الله في كل يوم مرتين"(87).

وعن محمد بن فضيل بن عياض، قال: "رأيت عبد الله بن المبارك في المنام، فقلت أي الأعمال وجدت أفضل؟ قال: الأمر الذي كنت فيه، قلت: الرباط والجهاد؟ قال: نعم، قلت: فأي شيء صنع بك؟ قال: غفر لي مغفرة ما بعدها مغفرة، وكلمتني امرأة من أهل الجنة أو امرأة من الحور العين".

وعن صخر بن راشد، قال: "رأيت عبد الله بن المبارك في منامي بعد موته، فقلت: أليس قد مت؟ قال: بلى! قلت: فما صنع بك ربك؟ قال: "غفر لي مغفرة أحاطت بكل ذنب، قلت: فسفيان الثوري؟ قال: بخ بخ ذاك ﴿**مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا**﴾ [النساء: 69]".

(85) أخرجه البخاري (9/ 31) برقم: 6990

(86) تاريخ دمشق، لابن عساكر (32/ 480).

(87) تاريخ دمشق، لابن عساكر (32/ 481).

وقال الفريابي: "رأيت النبي ﷺ في النوم، فقلت: يا رسول الله ما فعل ابن المبارك؟ فقال: ﴿**مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا**﴾ [النساء: 69].

قلت: ما فعل وكيع؟ فحرك يديه، وقال: "أكثر أكثر"، يعني في الحديث"[88].

ما حدث له أثناء وفاته وبعدها:

عن أبي القاسم قال: "وقيل فتح عبد الله بن المبارك عينه عند الوفاة فضحك وقال ﴿**لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ**﴾ [الصافات: 61]"[89].

وعن أبي بكر محمد بن إبراهيم بن علي قال: "أنشدنا عبد الله بن رستم قال رئي على قبر عبد الله بن المبارك مكتوب:

الموت بحر موجه غالب ... تذهل فيه حيل السابح
لا يصحب المرء إلى قبره ... غير التقى والعمل الصالح"[90]

***

(88) تاريخ بغداد (11/ 408). **وينظر**: تاريخ الإسلام (4/ 900).
(89) تاريخ دمشق، لابن عساكر (32/ 476).
(90) تاريخ دمشق، لابن عساكر (32/ 480).

وَكيعُ بنُ الجَرَّاح رحمه الله:

نسبُه ومولدُه ووفاتُه:

هو الإمام الحافظ أبو سفيان، وكيع بن الجرَّاح بن مليح بن عديِّ بن الفرس بن سفيان بن الحارث بن عمرو بن عبيد بن رؤاس بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة. من قرى نيسابور وقيل: بل أصله من السغد.

حج سنة ست وتسعين ومائة، ثم انصرف من الحج فمات بـ (فيد)، في المحرم سنة سبع وتسعين ومائة، في خلافة محمد بن هارون[91].

فضلُ وكيعٍ وورعُه وزهدُه:

لقد كان لوكيع رحمه الله السَّبق في الفضل على أقرانه، فقد حاز أعلى الغايات وأكمل الصِّفات، ولا يعني الكمال أنَّه لا يخطئ، فليس ثمَّة إنسان معصوم غير النبي ﷺ، وهذه أقوال أئمة الإسلام في فضله:

قال أبو جعفر الجمال: "أتينا يومًا وكيع بن الجراح فلم يخرج إلينا فظننَّا أنه يغسل ثيابه، فلما كان بعد غد خرج ونحن قعود وعليه ثيابه التي غسلت، فلما بصرنا به فزعنا من النور الذي يتلالأ من وجهه، وقال لي رجل كان بجنبي: من هذا؟ ملك هذا؟ فتعجبنا من ذلك النور".

وقال يحيى بن يمان: "إنَّ لهذا الحديث رجالًا خلقهم الله عز وجل منذ يوم خلق السموات والأرض، وإن وكيعًا منهم".

(91) الطبقات الكبرى (6/ 365). **وينظر**: التاريخ الكبير للبخاري (8/ 179)، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم (1/ 219)، وتاريخ بغداد (15/ 647)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (63/ 58)، وسير أعلام النبلاء (9/ 141).

وعن أبي داود البستي وسأله أبو بكر الخراز وغيره: "من أفضل من أدركت عندك؟ فقال: ما أدركت رجلًا كان أخشع لله ﷻ من وكيع".

وعن القعنبي قال: "كنَّا عند حماد بن زيد وجاء وكيع بن الجراح وسأله عن أشياء ثم ذهب، فقيل له: يا أبا إسماعيل هذا صاحب الثوري، فقال: ليس الثوري عندنا بأفضل منه".

وعن عمرو بن علي قال: "ما سمعت وكيعًا ذاكرًا أحدًا بسوء قط".

وعن ابن أبي الخصيب قال: "كنا عند وكيع ومعنا جماعة، فقدَّم إلينا طبقًا من رطب، فجعل يرفع التمرة إلى فيه، يوهمنا أنَّه يأكل ولا يأكلها إذا هو صائم"(92).

وعن يحيى بن يمان، قال: "مات سفيان الثوري، فجلس وكيع بن الجراح في موضعه".

وعن يحيى بن أيوب، قال: "حدثني رجل من أهل بيت وكيع، قال: أورثت وكيعًا أمه مائة ألف، قال: وما قاسم وكيع ميراثًا قط، قال يحيى بن أيوب: فأخبرني معاوية الهمداني، قال: قلت: أيش صنعتم؟ قال: كما كنا نصنع في الميراث، قال: وكان يؤتى بطعامه ولباسه، ولا يسأل عن شيء ولا يطلب شيئًا، وكان لا يستعين بأحد ولا على وضوء، كان إذا أراد ذلك قام هو".

وعن أسد بن عفير، قال: "أخبرني رجل من أهل هذا الشأن، ثقة، من أهل المروءة والأدب، قال: جاء رجل إلى وكيع بن الجراح، فقال له: إني أمت إليك بحرمة، قال: وما حرمتك؟ قال: كنت تكتب من محبرتي في مجلس الأعمش، قال: فوثب وكيع، فدخل منزله، فأخرج له صرة فيها دنانير، فقال: اعذرني فإني لا أملك غيرها".

وقال يحيى بن معين: "والله ما رأيت أحدًا يحدث لله تعالى غير وكيع بن الجراح، وما رأيت رجلًا قط أحفظ من وكيع، ووكيع في زمانه كالأوزاعي في زمانه"(93).

(92) الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (1/ 222). **وينظر**: تاريخ دمشق، لابن عساكر (63/ 76).

وقال هارون بن عبد الله: "ما رأيت أخشع لله من وكيع وكان عبد المجيد أخشع منه"(94).

سعَةُ علمِه وفقهِه:

كان وكيع بن الجراح سريع الفطنة، حديد الفؤاد، فهو رحمه الله من أوعية العلم، فإذا حدث أبهر العلماء وإذا اجتهد أدهش الفقهاء، لذا فقد طار بالثناء عليه المحدثون، وشهد له بالسبق الأئمة المجتهدون:

فعن صالح بن أحمد بن حنبل قال: "قلت لأبي: وكيع بن الجراح؟ فقال: ما رأيت أحدًا أوعى للعلم من وكيع بن الجراح ولا أشبه بأهل النسك منه".

وعن أحمد بن سنان الواسطي قال: "قلت للفضل بن عنبسة: مات وكيع بن الجراح، فقال مات؟ وتغير وجهه، وقال: رحمه الله، ما رأيت مثل وكيع منذ ثلاثين سنة".

وقال سفيان الثوري لوكيع: "لئن بقيت ليكثرن اختلاف أقدام الرجال إلى بني رؤاس. قال أبو محمد: يعني إلى محلته".

وقال ابن نمير: "وكيع أعلم بالحديث من ابن إدريس"(95).

وعن بكر بن عياش، قال: "قد كبرنا ونسينا، اذهب إلى وكيع في بني رؤاس".

وقال عليُّ بن المديني: "نظرت فإذا الإسناد يدور على ستة، ثم صار علم هؤلاء الستة إلى اثني عشر ثم انتهى علم هؤلاء الاثني عشر إلى ستة، إلى يحيى بن سعيد وعبد الرحمن ابن مهدي ووكيع بن الجراح ويحيى بن زكرياء بن أبي زائدة وعبد الله بن المبارك ويحيى بن آدم"(96).

=

(93) تاريخ بغداد (15/ 647).

(94) تاريخ دمشق، لابن عساكر (63/ 75).

(95) الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (1/ 219). **وينظر**: سير أعلام النبلاء (9/ 142).

ثناءُ العلماءِ عليه:

قال جرير: "جاءني ابن المبارك فقلت له: يا أبا عبد الرحمن من رجل الكوفة اليوم فسكت عني، ثم قال لي: رجل المقرئين ابن الجراح يعني وكيعًا".

وقال أحمد بن حنبل: "حدثنا وكيع، ولو رأيت وكيعًا رأيت رجلًا لم تر بعينيك مثله قط".

وعن يحيى بن معين، قال: "سمعت وكيعًا، يقول: ذهبت إلى أبي بكر بن عياش ومعي أحمد فانتخبت عليه أحاديث فلما حدثنا به، وقمنا، قال أبو بكر لإنسان: تدري ما انتخب هذه الأحاديث؟ انتخبها رجل أي رجل".

وعن يحيى بن يمان، قال: "سمعت سفيان الثوري، ونظر إلى وكيع بن الجراح: إنَّ هذا الرقاشي لا يموت حتى يكون له شأن، قال فذهب سفيان وقعد وكيع مكانه"(97).

وعن السائب سلم بن جنادة، قال: "جالست وكيع بن الجراح سبع سنين، فما رأيته بزق وما رأيته مس والله حصاة بيده، وما رأيته جلس مجلسه فتحرك، وما رأيته إلا مستقبل القبلة، وما رأيته يحلف بالله".

وقال الحسين بن أبي زيد: "صاحبت وكيع بن الجراح إلى مكة فما رأيته متكئًا ولا رأيته نائمًا في محمله".

وقال محمد بن أبي الصباح: "كان وكيع بن الجراح إذا أراد أن يحدِّث احتبى، فإذا احتبى سأله أصحاب الحديث فإذا نزع الحبوة لم يسألوه، وكان إذا حدَّث استقبل القبلة".

وعن القعنبي، قال: "كنا عند حماد بن زيد لا أعلمه إلا سنة سبعين، وعنده وكيع فلما قام، قالوا: هذا راوية سفيان: فقال: هذا إن حدَّث أرجح من سفيان"(98).

=

(96) الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (1/ 220).

(97) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (8/ 368).

وقال مروان: "ما وصف لي أحد إلا رأيته دون الصفة إلا وكيع فإنه فوق ما وصف لي"[99].

وعن علي بن عثمان النفيلي، قال: "قلت له، يعني: أحمد بن حنبل: إنَّ أبا قتادة كان يتكلم في وكيع، وعيسى بن يونس، وابن المبارك، فقال: من كذب أهل الصدق فهو الكاذب".

وعن يحيى بن معين، قال: "رأيت عند مروان بن معاوية لوحًا فيه أسماء شيوخ: فلان رافضي، وفلان كذا، وفلان كذا، ووكيع رافضي[100]، قال يحيى: فقلت له: وكيع خير منك، قال: مني؟ قلت: نعم، قال: فما قال لي شيئًا، ولو قال لي شيئًا لوثب أصحاب الحديث عليه، قال: فبلغ ذلك وكيعًا، فقال وكيع: يحيى صاحبنا، قال: فكان وكيع بعد ذلك يعرف لي ويوجب".

وقال يحيى بن معين: "رأيت من يحدث لله ستة: وكيع، وابن المبارك، وسعيد بن عامر، وحسين الجعفي، وأبو داود الحفري، وعبد الله بن مسلمة القعنبي".

وعن إبراهيم الحربي، قال: "سمعت أحمد بن حنبل ذكر يومًا وكيعًا، فقال: ما رأت عيني مثله قط، يحفظ الحديث جيدًا، ويذاكر بالفقه فيحسن، مع ورع واجتهاد، ولا يتكلم في أحد".

قال ابن عمار: "ما كان بالكوفة في زمان وكيع بن الجراح أفقه ولا أعلم بالحديث من وكيع، كان وكيع جهبذًا".

=

(98) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (8/ 369). **وينظر**: تاريخ بغداد (15/ 647)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (63/ 69).

(99) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (8/ 370).

(100) قال الذهبي: "مر قول أحمد: إن عبد الرحمن يسلم منه السلف، والظاهر أن وكيعًا فيه تشيع يسير، لا يضر -إن شاء الله- فإنه كوفي في الجملة، وقد صنف كتاب (فضائل الصحابة)، سمعناه قدم فيه باب مناقب علي على مناقب عثمان -رضي الله عنهما-". [سير أعلام النبلاء (9/ 154)].

وعن قتيبة قال: "سمعت جريرًا يقول: جاءني ابن المبارك، فقلت له: يا أبا عبد الرحمن، من رجل الكوفة اليوم؟ فسكت عني، ثم قال لي: رجل المصرين، يعني: وكيعًا"[101].

حافظةُ وكيعٍ من العجائب:

كان رَحِمَهُ اللَّهُ آيةً في الحفظ، فإذا سمع حديثًا فكأنما ارتسم على قلبه وانتقش في صفحة ذهنه، فلا يباريه أحدٌ في الحفظ، ولا يجاريه في استحضار حديثه، قمة في الاستيعاب وروعة في الأداء:

قال يحيى بن معين: "والله ما رأيت أحدًا يحدث لله غير وكيع، وما رأيت رجلًا أحفظ من وكيع، ووكيع في زمانه كالأوزاعي في زمانه".

وقال جرير الرازي: "قدم ابن المبارك فقلت له: يا أبا عبد الرحمن من خلفت بالعراق؟ قال: وكيع، قلت: ثم من قال: ثم وكيع، أسند وكيع عن الأئمة والأعلام ما لا يحد له من الصفات ولا يعد"[102].

وعن إسحاق بن إبراهيم -يعني ابن راهويه- قال: "حفظي وحفظ ابن المبارك تكلف وحفظ وكيع أصلي، قام وكيع يومًا قائمًا ووضع يده على الحائط وحدَّث سبعمائة حديث حفظًا".

وعن محمود بن آدم المروزي قال: "رأيت وكيعًا وبشر بن السري يتذاكران ليلة من العشاء إلى أن نودي بالفجر، فلما أصبحنا قلنا لبشر كيف رأيت وكيعًا؟ قال: ما رأيت أحفظ منه".

وعن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: "سمعت أبي يقول: كان وكيع مطبوع الحفظ، كان حافظًا حافظًا، وكان أحفظ من عبد الرحمن بن مهدي كثيرًا كثيرًا".

وقال ابن نمير: "كانوا إذا رأوا وكيعًا سكتوا، يعني في الحفظ والإجلال".

---

(101) تاريخ بغداد (15/ 647).

(102) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (8/ 371). **وينظر**: تاريخ بغداد (15/ 647)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (63/ 67).

قال عبد الرحمن: "حدثني أبي قال: سئل أحمد بن حنبل عن يحيى بن سعيد وعبد الرحمن بن مهدي ووكيع فقال: كان وكيع أسردهم".

وعن عبد الرحمن قال: "سألت أبي عن وكيع عن الأعمش أحب إليك أو عبد الله بن داود الخريبي؟ فقال: وكيع أحفظ من ابن داود الخريبي وأحفظ من ابن المبارك"(103).

وعن إبراهيم بن الشماس، قال: "لو تمنيت، كنت أتمنى عقل ابن المبارك وورعه، وزهد ابن فضيل ورقته، وعبادة وكيع وحفظه، وخشوع عيسى بن يونس، وصبر حسين الجعفي، صبر ولم يتزوج ولم يدخل في شيء من أمر الدنيا".

وقال يحيى بن معين: "سمعت وكيعًا، يقول: ما كتبت عن سفيان الثوري حديثًا قط، كنت أحفظ، فإذا رجعت إلى المنزل كتبته"(104).

حُسْنُ عبادتِه:

لم يكن وكيع رحمه الله عالِمًا وحسب، بل كان عابدًا حسنًا في عبادته وإقدامه على ربِّه، حسن الهيئة في الصلاة، ثابت الأركان، يوقر الصلاة أحسن توقير، ويقيم أركانها وواجباتها ومستحباتها على أكمل صورة، فقد قال رحمه الله: "من لم يأخذ أهبة الصلاة قبل وقتها لم يكن وقرها"، وقال: "هذه بضاعة لا يرتفع فيها إلا صادق"(105).

وعن محمد بن يوسف الجوهري، قال: "سمعت بشر بن الحارث، إن شاء الله، وسأله عباس العنبري عن الاعتكاف، فقال: أما ههنا، فلا، يعني: بغداد، قال له عباس: قد اعتكف وكيع أربعين يومًا، وحدثهم

(103) الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (1/ 221).
(104) تاريخ بغداد (15/ 647).
(105) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (8/ 370).

بحديثه كله. وقال: قد كنت عنده، أحسبه قال: في شهر رمضان، فقال له عباس: وهو معتكف؟ قال: نعم".

وقال يحيى بن أكثم القاضي: "صحبت وكيعًا في السفر والحضر، فكان يصوم الدهر، ويختم القرآن كل ليلة"(106).

وعن يحيى بن معين، قال: "ما رأيت أفضل من وكيع بن الجراح، قيل له: ولا ابن المبارك؟ قال: قد كان لابن المبارك فضل، ولكن ما رأيت أفضل من وكيع، كان يستقبل القبلة، ويحفظ حديثه، ويقوم الليل، ويسرد الصوم، ويفتي بقول أبي حنيفة، وكان قد سمع منه شيئًا كثيرًا".

وعن يحيى بن أيوب، قال: "حدثني بعض أصحاب وكيع، الذين كانوا يلزمونه، قالوا: كان لا ينام، يعني: وكيعا، حتى يقرأ جزءه في كل ليلة ثلث القرآن، ثم يقوم في آخر الليل فيقرأ المفصل، ثم يجلس، فيأخذ في الاستغفار حتى يطلع الفجر، فيصلي الركعتين".

وعن عبد الرحمن بن يوسف بن خراش، قال: "حدثنا أبو سعيد الأشج، قال: حدثني إبراهيم بن وكيع، قال: كان أبي يصلي الليل، فلا يبقى في دارنا أحد إلا صلى، حتى إن جارية لنا سوداء لتصلي"(107).

وعن أحمد بن سنان الواسطي قال: "رأيت وكيعًا إذا قام في الصلاة ليس يتحرك منه شيء، لا يزول ولا يميل على رجل دون الأخرى، لا يتحرك، كأنه صخرة قائمة".

---

(106) **قلت (أي الذهبي)**: "هذه عبادة يخضع لها، ولكنها من مثل إمام من الأئمة الأثرية مفضولة، فقد صح نهيه -عليه الصلاة والسلام- عن صوم الدهر، وصح أنه نهى أن يقرأ القرآن في أقل من ثلاث، والدين يسر، ومتابعة السنة أولى، فرضي الله عن وكيع، وأين مثل وكيع؟!

ومع هذا فكان ملازمًا لشرب نبيذ الكوفة الذي يسكر الإكثار منه، فكان متأولًا في شربه، ولو تركه تورعًا لكان أولى به، فإن من توقى الشبهات، فقد استبرأ لدينه وعرضه، وقد صح النهي والتحريم للنبيذ المذكور، وليس هذا موضع هذه الأمور، وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك، فلا قدوة في خطأ العالم، نعم، ولا يوبخ بما فعله باجتهاد -نسأل الله المسامحة-". [سير أعلام النبلاء (9/ 143)].

(107) تاريخ بغداد (15/ 647).

وعن أحمد بن سنان قال: "قال لي عمر بن عثمان: انحدر جانب رداء وكيع وهو في الصلاة فلم يرده إلى عاتقه"(108).

حرصُ وكيعٍ على العلمِ وقصَّته مع الأعمش:

قال وكيع: "أتيت الأعمش، فقلت: حدثني، فقال لي: ما اسمك؟ فقلت: وكيع، قال: اسم نبيل، ما أحسب إلا سيكون لك نبأ، أين تنزل من الكوفة؟ قلت: في بني رؤاس، قال: أين من منزل الجراح بن مليح؟ قال: قلت: ذاك أبي، وكان على بيت المال، قال: فقال لي: اذهب فجئني بعطائي، وتعال حتى أحدثك بخمسة أحاديث، قال: فجئت إلى أبي فأخبرته، فقال: خذ نصف العطاء فاذهب به، فإذا حدثك بالخمسة فخذ النصف الآخر، فاذهب به حتى يكون عشرة.

قال: فأتيته بنصف عطائه، فأخذه، فوضعه في كفه، وقال: هكذا، ثم سكت، فقلت: حدثني، قال: اكتب، فأملى عليَّ حديثين، قال: قلت وعدتني خمسة، قال: فأين الدراهم كلها؟ أحسب أن أباك أمرك بهذا، ولم يعلم أن الأعمش مدرب قد شهد الوقائع، اذهب فجئني بتمامها وتعال أحدثك بخمسة أحاديث، قال: فجئته، فحدثني بخمسة، قال: فكان إذا كان كل شهر جئته بعطائه فحدثني بخمسة أحاديث"(109).

وكيعٌ يتجنَّب مجالسةَ السَّلاطين:

عن صالح بن أحمد بن حنبل قال: "قلت لأبي أيما أثبت عندك وكيع أو يزيد قال: ما منهما بحمد الله إلا ثبت قلت فأيهما أصلح عندك في الإيمان؟ فقال: ما منهما بحمد الله إلا كل إلا وكيعًا لم يتلطخ بالسلطان، وما رأيت أحدًا أوعى للعلم من وكيع ولا أشبه بأهل النسك"(110).

(108) الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (1/ 222). **وينظر**: تاريخ دمشق، لابن عساكر (63/ 76).
(109) تاريخ بغداد (15/ 647). **وينظر**: تاريخ دمشق، لابن عساكر (63/ 67).
(110) تاريخ دمشق، لابن عساكر (63/ 74). **وينظر**: الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (1/ 223).

وعن حنبل بن إسحاق، قال: "سمعت أبا عبد الله يقول: قدم وكيع بغداد، وكان أبوه على بيت المال، قلت: وورد وكيع بغداد بعد هذه المرة هو وعبد الله بن إدريس، وحفص بن غياث، وأراد الرشيد أن يولي أحدهم القضاء، فامتنع عليه وكيع وابن إدريس، وأجابه حفص"(111).

توقيرُ وكيعٍ للعلم:

عن أحمد بن سنان قال: "كان وكيع لا يُتحدَّث في مجلسه ولا يبُرى قلم ولا يتبسم ولا يقوم أحد قائمًا، كانوا في مجلسه كأنهم في صلاة، فإن أنكر منهم شيئًا انتعل ودخل"(112).

حسنُ مُناظرته:

عن الفضل بن محمد البيهقي، قال: "سمعت أبي يقول: سمعت وكيعًا، يقول وقد جاءه رجلٌ يناظره في شيء من أمر المعاش أو الورع: فقال له وكيع: من أين تأكل؟ قال: ميراثًا ورثته عن أبي قال: من أين هو لأبيك؟ قال: ورثه عن أبيه، قال: من أين هو كان لجدك؟ قال لا أدري. فقال له وكيع: لو أنَّ رجلًا نذر لا يأكل إلا حلالًا، ولا يلبس إلا حلالًا، ولا يمشي إلا في حلال، لقلنا له: اخلع ثيابك وارم بنفسك في الفرات، ولكن لا تجد إلا السعة"، ثم قال وكيع: لو أن رجلًا بلغ في ترك الدنيا مثل سلمان وأبي ذر وأبي الدرداء ما قلنا له زاهدًا، لأن الزهد لا يكون إلا على ترك الحلال المحض، والحلال المحض لا نعرفه اليوم، فالدنيا عندنا حلال وحرام وشبهات، فالحلال حساب والحرام عذاب والشبهات عتاب. فأنزل الدنيا بمنزل الميتة وخذ منها ما يقيمك، فإن كانت حلالًا كنت قد زهدت فيها، وإن كانت حرامًا كنت قد أخذت منها ما يقيمك، لأنه لا يحل لك من الميتة إلا قدر ما يقيمك، وإن كانت شبهات كان فيها عتاب يسير"(113).

كيف كان يقضي وكيعٌ ليلَه ونهارَه:

(111) تاريخ بغداد (15/ 647). **وينظر** تاريخ دمشق، لابن عساكر (63/ 82).
(112) الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (1/ 232).
(113) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (8/ 370).

عن عبد الرحمن بن سفيان بن وكيع بن الجراح، قال: "حدثني أبي، قال: كان أبي وكيع يصوم الدهر، فكان يبكر فيجلس لأصحاب الحديث إلى ارتفاع النهار، ثم ينصرف، فيقيل إلى وقت صلاة الظهر، ثم يخرج فيصلي الظهر ويقصد طريق المشرعة التي كان يصعد فيها أصحاب الروايا، فيريحون نواضحهم، فيعلمهم من القرآن ما يؤدون به الفرائض إلى حدود العصر، ثم يرجع إلى مسجده فيصلي العصر، ثم يجلس فيدرس القرآن ويذكر الله إلى آخر النهار، ثم يدخل إلى منزله فيقدم إليه إفطاره، وكان يفطر على نحو عشرة أرطال من الطعام، ثم يقدم له قربة فيها نحو من عشرة أرطال نبيذًا، فيشرب منها ما طاب له على طعامه، ثم يجعلها بين يديه، ويقوم فيصلي ورده من الليل، وكلَّما صلى ركعتين أو أكثر من شفع أو وتر شرب منها حتى ينفذها، ثم ينام"(114).

قصَّة وكيع مع حديث ابن عمر "كُنْ في الدُّنيا كأنَّك غريبٌ..":

عن يحيى بن معين، قال: "سمعت وكيعًا يقول كثيرًا: وأي يوم لنا من الموت؟ قال يحيى: ورأيت وكيعًا أخذ في كتاب الزهد يقرؤه، فلما بلغ حديثًا منه ترك الكتاب، ثم قام فلم يحدث، فلما كان الغد وأخذ فيه بلغ ذلك الحديث، قام أيضًا ولم يحدث، حتى صنع ذلك ثلاثة أيام، قلت ليحيى: وأي حديث هو؟ قال: حديث مجاهد، قال: أخذ عبد الله بن عمر ببعض جسدي، وقال: أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسدي، فقال: "يا عبد الله بن عمر، كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل"، ثم ذكر الحديث"(115).

وكيعٌ يعفِّر وجهه بالتراب:

عن أحمد بن محمد، قال: "أخبرني بعض أصحابنا عن وكيع، قال: أغلظ رجل لوكيع بن الجراح، فدخل وكيع بيتًا، فعفر وجهه بالتراب، ثم خرج إلى الرجل، فقال: زد وكيعًا بذنبه، فلولاه ما سلطت عليه"(116).

(114) تاريخ بغداد (15/ 647).
(115) تاريخ بغداد (15/ 647).
(116) المرجع السابق.

وكيعٌ يذاكر صاحبَه بوقفةٍ واحدةٍ الى أذان الفجر:

قال أبو داود: "التقى وكيع وعبد الرحمن في المسجد الحرام بعد عشاء الآخرة، فتواقفا حتى سمعا أذان الصبح"[117].

اجتماعُ النَّاس على وكيعِ بن الجرَّاح:

عن أبي هشام الرفاعي محمد بن يزيد، قال: "دخلت مسجد الحرام، فإذا رجل جالس يحدث، والناس مجتمعون عليه كثير، قال: فاطلعت، فإذا عبيد الله بن موسى، قال: فقلت: يا أبا محمد، كثر الزبون، كثر الزبون، قال: فدخلت الطواف، فطفت أسبوعًا واحدًا، قال: فخرجت، فإذا عبيد الله وحده قاعد، وإذا رجل خلف أسطوانة الحمراء قاعد يحدث، وقد اجتمع عليه زحام مثل ما على عبيد الله وزيادة، فاطلعت فنظرت، فإذا وكيع بن الجراح، فقلت لعبيد الله: ما فعل الناس؟ أين زبونك؟ قال: قدم التنين فأخذهم، قدم وكيع بن الجراح، تركوني وحدي"[118].

وعن صالح بن سفيان قال: "لما قدم وكيع مكة انجفل الناس إليه وحج تلك السنة غير واحد من العلماء وكان ممن قدم عبد الرزاق، قال: فخرج ونظر إلى مجلسه فلم ير أحدًا، قال فاغتنم لأجل ذلك وجعل يدخل ويخرج حتى أرى رجلًا فقال ما للناس، قال قدم وكيع بن الجراح قال: فحمد الله وقال ظننت أنهم تركوا حديثي، قال وأما أبو أسامة فخرج فلم ير أحدًا، فقال: أين الناس؟ فقالوا: قدم أبو سفيان فقال هذا التنين لا يقع في مكان إلا احترق ما حوله"[119].

---

(117) المرجع السابق.

(118) تاريخ بغداد (15/ 647). **وينظر**: تاريخ دمشق، لابن عساكر (63/ 70).

(119) تاريخ دمشق، لابن عساكر (63/ 70).

وعن حسين أخي زيدان قال: "كنت مع وكيع فأقبلنا جميعًا من المصيصة أو طرسوس، فأتينا الشام فما أتينا بلدًا إلا استقبلنا واليها، وشهدنا الجمعة في مسجد دمشق فلما سلم الإمام طافوا بوكيع، فلما انصرف إلى أهله فحدثت به مليحًا ابنه، فقال رأيت في جسده آثار خضرة مما زحم ذلك اليوم"(120).

قصَّة وكيع مع هارون الرشيد:

عن حماد بن المؤمل أبو جعفر الضرير الكلبي قال: "حدثني شيخ على باب بعض المحدثين قال سألت وكيعًا عن مقدمه هو وابن إدريس وحفص على هارون الرشيد، فقال لي: ما سألني عن هذا أحد قبلك قدمنا على هارون أنا وأبو عبد الله بن إدريس وحفص بن غياث، فأقعدنا بين السريرين فكان أول ما دعا به أنا فقال لي هارون يا وكيع، قلت: لبيك يا أمير المؤمنين قال إن أهل بلدك طلبوا مني قاضيًا وسموك لي فيمن سموا، وقد رأيت أن أشركك في أمانتي وصالح ما أدخل فيه من أمر هذه الأمة، فخذ عهدك وامض فقلت: يا أمير المؤمنين أنا شيخ كبير وإحدى عيني ذاهبة والأخرى ضعيفة، فقال هارون اللهم غفرًا خذ عهدك أيها الرجل وامض، فقلت: يا أمير المؤمنين، والله لئن كنت صادقًا إنه لينبغي أن تقبل مني ولئن كنت كاذبًا فما ينبغي أن تولي القضاء كذابًا، فقال أخرج فخرجت ودخل ابن إدريس وكأن هارون قد وسم له من ابن إدريس وسم يعني خشونة جانبه، فدخل فسمعنا صوت ركبتيه على الأرض حين برك، وما سمعناه يسلم إلا سلامًا خفيًّا فقال له هارون: أتدري لم دعوتك قال: لا قال إن أهل بلدك طلبوا مني قاضيًا وإنهم سموك فيمن سموا وقد رأيت أن أشركك في أمانتي، وأدخلك في صالح ما أدخل فيه من أمر هذه الأمة، فخذ عهدك وامض فقال له ابن إدريس: ليس أصلح للقضاء فنكث هارون بإصبعه وقال له: وددت أني لم أكن رأيتك، قال له ابن ادريس وأنا وددت أني لم أكن رأيتك فخرج، ثم دخل حفص بن غياث فقال له كما قال لنا، فقبل عهده وخرج، فأتانا خادم معه ثلاثة أكياس في كل كيس خمسة آلاف دينار فقال لي أمير المؤمنين يقرئكم السلام ويقول لكم: قد لزمتكم في شخوصكم مؤونة فاستعينوا بهذه في سفركم، قال وكيع فقلت له: أقرئ أمير المؤمنين السلام وقل له قد وقعت مني بحيث يحب أمير المؤمنين، وأنا عنها مستغن وفي رعية أمير

(120) تاريخ دمشق، لابن عساكر (63/ 60).

المؤمنين من هو أحوج إليها مني، فإن رأى أمير المؤمنين أن يصرفها إلى من أحب، وأما ابن إدريس فصاح به مر من ها هنا وقبلها حفص، وخرجت الرقعة إلى ابن إدريس من بيننا عافانا الله وإياك سألناك أن تدخل في أعمالنا فلم تفعل ووصلناك من أموالنا فلم تقبل، فإذا جاءك ابني المأمون فحدثه إن شاء الله، فقال للرسول إذا جاءنا مع الجماعة حدثناه إن شاء الله ثم مضينا فلما صرنا إلى الياسرية حضرت الصلاة فنزلنا نتوضأ للصلاة، قال وكيع فنظرت إلى شرطي محموم قائم في الشمس عليه سواده فطرحت كسائي عليه وقلت يدفأ إلى أن أتوضأ، فجاء ابن إدريس فاستبله ثم قال لي: رحمته لا رحمك الله في الدنيا أحد يرحم مثل ذا، ثم التفت إلى حفص فقال له: يا حفص قد عملت حين دخلت إلى سوق أسد فخضبت لحيتك ودخلت الحمام أنك ستلي القضاء، لا والله لا كلمتك حتى تموت قال فما كلمه حتى مات"[121].

أحسَنُ دَواءٍ لداء النِّسيان:

عن علي بن خشرم قال: "رأيت وكيعًا وما رأيت بيده كتابًا قط إنما هو حفظ، فسألته عن أدوية الحفظ فقال: إن علمتك الدواء استعملته قلت إي والله قال: ترك المعاصي، ما جربت مثله للحفظ"[122].

أخطاءُ وكيعِ بن الجراح:

عن صالح بن أحمد بن حنبل قال: "سمعت أبي يقول: أخطأ وكيع بن الجراح في خمس مائة".

وقال علي بن المديني وذكر وكيعًا واللحن، فقال: "كان وكيع يلحن، ولو حدثت عنه بألفاظه لكانت عجبًا"[123].

وكيعُ بن الجرَّاح في السِّجن وينجو من الموت:

(121) تاريخ دمشق، لابن عساكر (63/ 82).
(122) تاريخ دمشق، لابن عساكر (63/ 73).
(123) تاريخ دمشق، لابن عساكر (63/ 98).

عن يعقوب قال: "وفي هذه السنة أو سنة خمس حدث وكيع ابن الجراح بمكة عن إسماعيل بن أبي خالد عن البهي أنَّ رسول الله ﷺ لما مات لم يدفن حتى ربا بطنه وانثنى خنصره[124]، وذكر غير هذا فرفع إلى العثماني فأرسل إليه فحبسه وعزم على قتله وصلبه وأمر بخشبة أن تنصب خارجًا من الحرم وبلغ وكيعًا وهو في الحبس، قال الحارث بن صديق فدخلت على وكيع لما بلغني وقد سبق إليه الخبر قال وكان بينه وبين سفيان يومئذ متباعدًا فقال: ما أرانا إلا قد اضطررنا إلى هذا الرجل احتجنا إليه يعني سفيان، قال: قلت له يا أبا سفيان دع هذا عنك فإنه إن لم يدركك فقد قال أرسل إليه وفزع إليه فدخل سفيان على العثماني فكلمه فيه والعثماني يأبى عليه، فقال له سفيان: إني لك ناصح إن هذا رجل من أهل العلم وله عشيرة، فإن أنت أقدمت عليه أقل ما يكون أن تقوم عليك عشيرته وولده بباب أمير المؤمنين فتشخص لمناظرتهم، قال: فعمل فيه كلام سفيان وأمر بإطلاقه من الحبس، قال الحارث بن صديق: فرجعت إليه فأخبرته ثم جاء الأخوان فأخرجوه من السجن، وركب حمارًا وحملنا متاعه وخرج، قال الحارث: فدخلت على العثماني من الغد فقلت: الحمد لله الذي لم تبتل بهذا الرجل وسلمك الله، فقال يا حارث ما ندمت على شيء ندامتي على الذي خطر ببالي هذه الليلة، حديث جابر بن عبد الله حولت أبي والشهداء بعد أربعين سنة فوجدناهم رطابًا ينثنون ما يتغير منهم شيء، فسمعت سعيد بن منصور يقول كنَّا بالمدينة فكتب أهل مكة إلى أهل المدينة بالذي كان من وكيع وابن عيينة والعثماني، وقالوا إذا قدم المدينة فلا تتكلوا على الوالي وارجموه بالحجارة حتى تقتلوه، فعزموا على ذلك وبلغنا الذي هم عليه فبعثنا بريدًا إلى وكيع أن لا يأتي المدينة ويمضي من طريق الربذة، وقد كان جاوز مفرق الطر إلى المدينة فلما أتاه البريد رجع راجعًا إلى الربذه ومضى إلى الكوفة"[125].

موقفٌ لوكيعِ بن الجرَّاح عند موته:

(124) قال الذهبي: "فهذه زلة عالم، فما لوكيع، ولرواية هذا الخبر المنكر، المنقطع الإسناد! كادت نفسه أن تذهب غلطًا، والقائمون عليه معذورون، بل مأجورون، فإنهم تخيلوا من إشاعة هذا الخبر المردود، غضا ما لمنصب النبوة، وهو في بادئ الرأي يوهم ذلك، ولكن إذا تأملته، فلا بأس -إن شاء الله- بذلك، فإن الحي قد يربو جوفه، وتسترخي مفاصله، وذلك تفرع من الأمراض". [سير أعلام النبلاء (9/ 160)].

(125) تاريخ دمشق، لابن عساكر (63/ 102).

عن مليح بن وكيع، قال: " لما نزل بأبي الموت أخرج إليَّ يده، فقال: يا بني ترى يدي ما ضربت بها شيئًا قط"[126].

ما رآه النَّاس في المنام في وكيع بعد موته:

عن داود بن يحيى بن يمان، قال: رأيت رسول الله ﷺ في النوم فقلت: يا رسول الله من الأبدال؟ قال: «الذين لا يضربون بأيديهم شيئًا[127] وإن وكيع بن الجراح منهم»[128].

وعن سلمة بن عفان قال: "رأيت وكيعًا في المنام فقلت ما صنع بك ربك قال: الجنة، قلت: بأي شيء يا أبا سفيان قال: بالعلم"[129].

أقوال وكيع بن الجراح:

قال وكيع: "من تهاون بالتكبيرة الأولى فاغسل يديك منه".

وقال: "من لم يأخذ أهبة الصلاة قبل وقتها لم يكن وقرها".

وقال: "إنما العاقل من عقل عن الله أمره، وليس من عقل أمر دنياه"[130].

وقال وكيع ابن الجراح: "ما نعيش إلا في ستره ولو كشف الغطاء لكشف عن أمر عظيم".

وقال: "الصدق النية"[131].

---

(126) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (8/ 371).

(127) قال الذهبي: "بل الذي يضرب بيده في سبيل الله أشرف وأفضل". [سير أعلام النبلاء (9/ 159)].

(128) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (8/ 371). **وينظر**: تاريخ بغداد (15/ 647)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (63/ 104).

(129) تاريخ دمشق، لابن عساكر (63/ 108).

(130) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (8/ 370).

وقال: "ما نظرت في كتاب منذ خمس عشرة سنة، إلا في صحيفة يومًا فنظرت في طرف منه ثم أعدته مكانه"[132].

وقال: "من زعم أن القرآن مخلوق فقد زعم أن القرآن محدث ومن زعم أن القرآن محدث فقد كفر"[133].

وقال: "الجهر بالبسملة بدعة"[134].

سببُ وفاته:

قال إبراهيم: "فحج في تلك الحجة، ثم أخذه البطن فما زال به البطن إلى (فيد)، فكان ينزل في كل ميل مرارًا، فمات بـ (فيد)، ودفن في الجبل آخر القبور، سنة ثمان وتسعين ومائة في آخرها"[135].

***

=

(131) الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (1/ 223).

(132) تاريخ بغداد (15/ 647).

(133) تاريخ دمشق، لابن عساكر (63/ 99).

(134) سير أعلام النبلاء (9/ 156).

(135) تاريخ بغداد (15/ 647). **وينظر**: تاريخ دمشق، لابن عساكر (63/ 105).

المَلِكُ العادِل: محمود زنكي رحمه الله

نسبُه ومولدُه ووفاتُه:

هو السُّلطانُ الصَّادق والملك العادل، نور الدِّين أبو القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر، أبو القاسم بن أبي سعيد، قسيم الدولة التركية.

تملك وله ثلاثون سنة. وكان أعدل ملوك زمانه بالإجماع، وأكثرهم جهادًا، وأحرصهم على الخير، وأدينهم وأتقاهم لله، ولد وقت طلوع الشمس من يوم الأحد السابع عشر من شوال سنة إحدى عشرة وخمسمائة بحلب. وقد وافاه الأجل شهر شوال سنة خمسمائة وتسع وستين[136].

صفاته الخُلقية والخَلقية:

(كان شهمًا شجاعًا ذا همَّة عالية، وقصد صالح، وحرمة وافرة وديانة بينة... وهو رحمه الله حسن الخط، متبع للآثار النبوية، متأت لمعرفة العلوم بالفهم والبيان كثير لمطالعتها، مائل إلى نقلها مواظب حريص على تحصيل كتب الصحاح والسنن، مقتن لها بأوفر الأعواض والثمن محافظ على الصلوات في الجماعات، مراع لأدائها في الأوقات مؤد لفروضها ومسنوناتها معظم لفقدها في جميع حالاتها، عاكف على تلاوة القرآن على الأيام، كثيرٌ التلاوة، محبٌّ لفعل الخيرات، عفيف البطن والفرج، مقتصدٌ في الإنفاق على نفسه وعياله في المطعم والملبس، حتى قيل: إنه كان أدنى الفقراء في زمانه أعلا نفقة منه من غير اكتناز ولا استئثار بالدنيا، متبري من التباهي والتماري والتنافس عري عن التجبر والتكبر برئ من التنجم والتطير مع ما جمع الله له من العقل المتين والرأي الصويب الرصين والاقتداء بسيرة السلف الماضين والتشبه بالعلماء والصالحين والاقتفاء لسيرة من سلف منهم في حسن سمتهم، والاتباع لهم في حفظ حالهم ووقتهم، حتى روى حديث المصطفى

(136) البداية والنهاية (12/ 277). **وينظر:** تاريخ الإسلام (12/ 424)، وتاريخ الإسلام (12/ 424)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (57/ 118)، وسير أعلام النبلاء (20/ 531).

ﷺ وأسمعه وكان قد استجيز له ممن سمعه وجمعه، حرصًا منه على الخير في نشر السنة والتحديث، ورجاء أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثًا كما جاء في الحديث، فمن رآه شاهد من جلال السلطنة وهيبة الملك ما يبهره فإذا فاوضه رأى من لطافته وتواضعه ما يحيره ولقد حكى عنه من صحبه في حضره وسفره أنه لم يكن يسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في ضجره، وإن أشهى ما إليه كلمة حق يسمعها أو إرشاد إلى سنة يتبعها.

يحب الصالحين ويؤاخيهم ويزور مساكنهم لحسن ظنه بهم، فإذا احتلم مماليكه أعتقهم وزوج ذكرانهم بإناثهم ورزقهم، ومتى تكررت الشكاية إليه من أحد ولاته أمر بالكف عن أذى من تكلم بشكاته، فمن لم يرجع منهم إلى العدل قابله بإسقاط المرتبة والعزل، فلما جمع الله له من شريف الخصال تيسر له ما يقصده من جميع الأعمال وسهل على يديه في فتح الحصون والقلاع، ومكن له في البلدان والبقاع حتى ملك حصن شيزر وقلعة دوسر، وهما من أحصن المعاقل والحصون واحتوى على ما فيهما من الذخر المصون من غير سفك محجمة من دم في طلبهما ولا قتل أحد من المسلمين بسببهما، وأكثر ما أخذه من البلدان بتسلمه من أهله بالأمان ووفى لهم بالعهود والإيمان فأوصلهم إلى مأمنهم من المكان.

وإذا استشهد أحد من أجناده حفظه في أهله وأولاده وأجرى عليهم الجرايات، وولَّى من كان أهلًا منهم للولايات، وكلما فتح الله عليه فتحًا وزاده ولاية أسقط عن رعيته قسطًا وزادهم رعاية، حتى ارتفعت عنهم الظلامات والمكوس واتضعت في جميع ولايته الغرامات والنحوس، ودرت على رعاياه الأرزاق ونفقت عندهم الأسواق وحصل بينهم بيمنه الاتفاق، وزال ببركته العناد والشقاق، فإن فتكت شرذمة من الملاعين فلما علمت منه من الرأفة واللين ولو خلط لهم شدته بلينه لخاف سطوته الأسد في عرينه، فالله يحقن به الدماء ويسكن به الدهماء ويديم له النعماء ويبلغ مجده السماء، ويجري الصالحات على يديه، ويجعل منه واقية عليه، فقد ألقى أزمتنا إليه وأحصى علم حاجتنا إليه، ومناقبه خطيرة ومادحه كثيرة، ذكرت منها غيضًا من فيضٍ، وقليلًا من كثير)[137].

(137) البداية والنهاية (12/ 278)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (57/ 123).

(وكان طويل القامة أسمر اللون، حلو العينين واسع الجبين، حسن الصورة، تركي الشكل، ليس له لحية إلا في حنكه)[138].

بعض أعمال نور الدِّين:

(افتتح دمشق في سنة تسع وأربعين، فأحسن إلى أهلها وبنى لهم المدارس والمساجد والربط، ووسع لهم الطرق على المارة، وبنى عليها الرصافات ووسع الأسواق، ووضع المكوس بدار الغنم والبطيخ والعرصة، وغير ذلك.

يحب العلماء والفقراء ويكرمهم ويحترمهم، ويحسن إليهم، وكان يقوم في أحكامه بالمعدلة الحسنة، واتباع الشرع المطهر، ويعقد مجالس العدل ويتولَّاها بنفسه، ويجتمع إليه في ذلك القاضي والفقهاء والمفتون من سائر المذاهب، ويجلس في يوم الثلاثاء بالمسجد المعلق، الذي بالكشك، ليصل إليه كل واحد من المسلمين وأهل الذمة، حتى يساويهم، وأحاط السور على حارة اليهود، وكان خرابًا، وأغلق باب كسان وفتح باب الفرج، ولم يكن هناك قبله باب بالكلية، وأظهر ببلاده السنة وأمات البدعة، **وأمر بالتأذين بـ "حي على الصلاة حي على الفلاح"، ولم يكن يؤذَّن بهما في دولتَي أبيه وجدِّه، وإنما كان يؤذن بـ "حي على خير العمل" لأن شعار الرفض كان ظاهرًا بها**، وأقام الحدود وفتح الحصون، وكسر الفرنج مرارًا عديدة، واستنقذ من أيديهم معاقل كثيرة من الحصون المنيعة، التي كانوا قد استحوذوا عليها من معاقل المسلمين، كما تقدم بسط ذلك في السنين المتقدمة، وأقطع العرب إقطاعات لئلا يتعرضوا للحجيج، وبنى بدمشق مارستانًا[139]، لم يبن في الشام قبله مثله ولا بعده أيضًا، ووقف وقفا على من يعلم الأيتام الخط والقراءة، وجعل لهم نفقة وكسوة، وعلى المجاورين بالحرمين، وله أوقاف دارة على جميع أبواب الخير، وعلى الأرامل والمحاويج)[140].

---

(138) البداية والنهاية (12/ 284).

(139) **أي**: دار المرضى (المشافي).

(140) البداية والنهاية (12/ 278).

وقال ابن عساكر: "فما من بلد منها إلا وله فيه حسن أثر، وما من أهلها أحد إلا نظر له أحسن نظر، وحصل الكثير من كتب العلوم ووقفها على طلابها وأقام عليها الحفظة من نقلتها وطلابها وأربابها وجدد كثيرا من ذي السبيل وهدى بجهده إلى سواء السبيل وأجهد نفسه في جهاد أعداء الله وبالغ في حربهم"[141].

عدل الملك نور الدِّين:

مهما تكلمنا عن عدله فلا نوفِّيه حقَّه، كيف لا وهو الذي أنصف القضية وقسم بالسَّوية في زمن انتشر فيه الظلم واستعدى فيه الظالمون، ولما أتى نور الدين أخذ بالسنن وأمات البدع، وسار على طريقة من سلفه من الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين، فاستبشر به الناس خيرًا، واستنشق المظلومون نفحات العدل الزنكية، ونسمات القسط النورية؛ فرحمه الله رحمة واسعة، وجزاه بفضله وإحسانه.

قال ابن الأثير: "لم يكن بعد عمر بن عبد العزيز مثل الملك نور الدين، ولا أكثر تحرِّيًا للعدل والإنصاف منه، وكانت له دكاكين بحمص قد اشتراها مما يخصه من المغانم، فكان يقتات منها، وزاد امرأته من كراها على نفقتها عليها"[142].

محمود زنكي الزَّاهد:

لقد سارعت الدنيا بزينتها وزخرفها وجمالها الى نور الدين زنكي، ولكنها لم تجد منه قلبًا يستقبلها؛ فلم تستطع إغراءه ولا العبث بمسيرته العادلة وسيرته الزكية الطاهرة، بل طلقها طلاقًا بائنًا لا رجعة فيه، وهذا هو حال الصالحين، حتى وافاه الأجل على ما كان منه، فرحمه الله وغفر له. ومن ورعه وزهده ما حكي عنه أنه:

(141) تاريخ دمشق، لابن عساكر (57/ 120).
(142) البداية والنهاية (12/ 278).

(استفتى العلماء في مقدار ما يحلُّ له من بيت المال، فكان يتناوله ولا يزيد عليه شيئًا، ولو مات جوعًا... وكان لا يلبس الحرير، وكان يأكل من كسب يده بسيفه ورمحه، وركب يومًا مع بعض أصحابه والشمس في ظهورهما والظل بين أيديهما لا يدركانه، ثم رجعا فصار الظل وراءهما ثم ساق نور الدين فرسه سوقًا عنيفًا وظله يتبعه، فقال لصاحبه: أتدري ما شبهت هذا الذي نحن فيه؟ شبهته بالدنيا تهرب ممن يطلبها، وتطلب من يهرب منها، وقد أنشد بعضهم في هذا المعنى:

مثل الرزق الذي تطلبه ... مثل الظِّل يمشي معك
أنت لا تدركه مستعجلًا ... فإذا وليت عنه تبعك[143]

نور الدين يوقظ النَّائمين لصلاة القيام:

(كانت زوجته "عصمة الدِّين خاتون بنت الأتابك معين الدين" تكثر القيام في الليل، فنامت ذات ليلة عن وردها فأصبحت وهي غضبى، فسألها نور الدين عن أمرها فذكرت نومها الذي فوت عليها وردها، فأمر نور الدين عند ذلك بضرب طبلخانة[144] في القلعة وقت السحر، لتوقظ النائم ذلك الوقت لقيام الليل، وأعطى الضارب على الطبلخانة أجرًا جزيلًا، وجراية[145] كثيرة)[146].

قتاله في الموصل:

(غزا معه أخوه قطب الدين في عسكر الموصل، وغيرهم من المجاهدين، فكسر الفرنج والروم والأرمن وأذاقهم كؤوس المنية بالأسنة[147] والصوارم[148] فأبادهم، حتى لم يفلت منهم غير الشديد الذاهل، وكانت

(143) البداية والنهاية (12/ 279).
(144) **أي**: تضرب الأجراس لتوقظ النائمين.
(145) إما راتب جارٍ أو، حصة من الطعام مستمرة.
(146) البداية والنهاية (12/ 279).
(147) **أي**: نَصْل الرُّمْح.
(148) **أي**: السيوف.

عدتهم ثلاثين ألفًا بين فارس وراجل، ثم نزل على قلعة حارم فافتتحها ثانية، وحواها وأخذ أكبر قرى عمل أنطاكية وسباها، وكان قبل ذلك قد كسرهم بقرب بانياس، وقتل جماعة من أبطالهم وأسر كثيرًا من فرسانهم ورجالهم..)[149].

علمه ومذهبه:

(كان فقيهًا على مذهب أبي حنيفة، وسمع الحديث وأسمعه)[150].

حسن عبادته:

وكان كثير الصلاة بالليل من وقت السحر إلى أن يركب:

جمع الشجاعة والخشوع لديه ... ما أحسن الشجعان في المحراب[151]

(وقال الفقيه أبو الفتح الأشرى معيد النظامية ببغداد، وكان قد جمع سيرة مختصرة لنور الدين، قال: وكان نور الدين محافظًا على الصلوات في أوقاتها في جماعة بتمام شروطها والقيام بها بأركانها والطمأنينة في ركوعها وسجودها، وكان كثير الصلاة بالليل، كثير الابتهال في الدعاء والتضرع إلى الله ﷻ في أموره كلها. قال: وبلغنا عن جماعة من الصوفية ممن يعتمد على قولهم أنهم دخلوا بلاد القدس للزيارة أيام أخذ القدس الفرنج فسمعهم يقولون: إن القسيم ابن القسيم -يعنون نور الدين- له مع الله سر، فإنه لم يظفر وينصر علينا بكثرة جنده وجيشه، وإنما يظفر علينا وينصر بالدعاء وصلاة الليل، فإنه يصلي بالليل ويرفع يده إلى الله ويدعو، فإنه يستجيب له ويعطيه سؤله فيظفر علينا. قال: فهذا كلام الكفار في حقه)[152].

(149) تاريخ دمشق، لابن عساكر (57/ 122).
(150) البداية والنهاية (12/ 279).
(151) البداية والنهاية (12/ 279).
(152) البداية والنهاية (12/ 283).

الملك العادل يلعب الكرة:

(وكان يكثر اللعب بالكرة، فعاتبه رجل من كبار الصالحين في ذلك فقال: إنما الأعمال بالنيات، وإنما أريد بذلك تمرين الخيل على الكر والفر، وتعليمها ذلك، ونحن لا نترك الجهاد)[153].

أحد الرَّعية يحاكم الملك نور الدِّين:

يمكن أن يستغرب بعض الناس كيف يقع مثل هذا؛ ولكن مع نور الدين زنكي لا غرابة فهو الملك العادل، ولم يسمَّ عادلًا إلا بمثل هذه الأمور:

(ذكر ابن الأثير أن الملك نور الدين بينما هو ذات يوم يلعب بالكرة إذ رأى رجلًا يحدِّث آخر ويومئ إلى نور الدين، فبعث الحاجب ليسأله ما شأنه، فإذا هو رجل معه رسول من جهة الحاكم، وهو يزعم أن له على نور الدين حقًّا يريد أن يحاكمه عند القاضي، فلما رجع الحاجب إلى نور الدين وأعلمه بذلك ألقى الجوكان من يده، وأقبل مع خصمه ماشيًا إلى القاضي الشهرزوري، وأرسل نور الدين إلى القاضي أن لا تعاملني إلا معاملة الخصوم، فحين وصلا وقف نور الدين مع خصمه بين يدي القاضي، حتى انفصلت الخصومة والحكومة، ولم يثبت للرجل على نور الدين حق، بل ثبت الحق للسلطان على الرجل، فلما تبين ذلك قال السلطان إنما جئت معه لئلا يتخلف أحد عن الحضور إلى الشرع إذا دعي إليه، فإنما نحن معاشر الحكام أعلانا وأدنانا شجنكية -خدم- لرسول الله ﷺ ولشرعه، فنحن قائمون بين يديه طوع مراسيمه، فما أمر به امتثلناه، وما نهانا عنه اجتنبناه، وأنا أعلم أنه لا حقَّ للرجل عندي، ومع هذا أشهدكم أني قد ملكته ذلك الذي ادَّعى به ووهبته له)[154].

بناؤه لدار العدل وجلوسه فيه:

(153) البداية والنهاية (12/ 279).

(154) المرجع السابق.

(قال ابن الأثير: وهو أول من ابتنى دارًا للعدل، وكان يجلس فيها في الأسبوع مرتين، وقيل أربع مرات، وقيل خمس. ويحضر القاضي والفقهاء من سائر المذاهب، ولا يحجبه يومئذ حاجب ولا غيره، بل يصل إليه القوي والضعيف، فكان يكلم الناس ويستفهمهم ويخاطبهم بنفسه، فيكشف المظالم، وينصف المظلوم من الظالم، وكان سبب ذلك أن أسد الدين شيركوه بن شادي كان قد عظم شأنه عند نور الدين، حتى صار كأنه شريكه في المملكة، واقتنى الأملاك والأموال والمزارع والقرى، وكان ربما ظلم نوابه جيرانه في الأراضي والأملاك العدل، وكان القاضي كمال الدين ينصف كل من استعداه على جميع الأمراء إلا أسد الدين هذا فما كان يهجم عليه، فلما ابتنى نور الدين دار العدل تقدم أسد الدين إلى نوابه أن لا يدَعوا لأحد عنده ظلامة، وإن كانت عظيمة، فإن زوال ماله عنده أحب إليه من أن يراه نور الدين بعين ظالم، أو يوقفه مع خصم من العامة، ففعلوا ذلك، فلما جلس نور الدين بدار العدل مدة متطاولة ولم ير أحدًا يستعدي على أسد الدين، سأل القاضي عن ذلك فأعلمه بصورة الحال، فسجد نور الدين شكرًا لله، وقال: الحمد لله الذي أصحابنا ينصفون من أنفسهم)[155].

شجاعته:

لم يمنع نور الدين سلطانه فيمتنع عن الإقدام إلى الجهاد في سبيل الله؛ بل من كانت الشجاعة طبعه والإقدام سليقته، فلا يمكن أن يتخلَّف في موطن يتقدم فيه من دونه، حاشا نور الدين أن يكون طبعه الركون إلى الأرض.

و(يقال: إنه لم ير على ظهر فرس قط أشجع ولا أثبت منه... وكان شجاعًا صبورًا في الحرب، يضرب المثل به في ذلك، وكان يقول: "قد تعرضت للشهادة غير مرة فلم يتفق لي ذلك، ولو كان فيَّ خير ولي عند الله قيمة لرزقنيها، والأعمال بالنية". وقال له يومًا قطب الدين النيسابوري: بالله يا مولانا السلطان لا تخاطر بنفسك فإنك لو قتلت قتل جميع من معك، وأخذت البلاد، وفسد حال المسلمين، فقال: "له اسكت يا

(155) البداية والنهاية (12/ 280).

قطب الدين فإن قولك إساءة أدب على الله، ومن هو محمود؟ من كان يحفظ الدين والبلاد قبلي غير الذي لا إله إلا هو؟ ومن هو محمود؟"، قال فبكى من كان حاضرًا رحمه الله)[156].

قصَّته مع أحد ملوك الأفرنج الذي أسره:

(وقد أسر بنفسه في بعض الغزوات بعض ملوك الإفرنج فاستشار الأمراء فيه: هل يقتله أو يأخذ ما يبذل له من المال؟ وكان قد بذل له في فداء نفسه مالًا كثيرًا، فاختلفوا عليه ثم حسن في رأيه إطلاقه وأخذ الفداء منه، فبعث إلى بلده من خلاصته من يأتيه بما افتدى به نفسه، فجاء به سريعًا فأطلقه نور الدين، فحين وصل إلى بلاده مات ذلك الملك ببلده، فأعجب ذلك نور الدين وأصحابه، وبنى من ذلك المال المارستان الذي بدمشق، وليس له في البلاد نظير، ومن شرطه أنَّه على الفقراء والمساكين، وإذا لم يوجد بعض الأدوية التي يعز وجودها إلا فيه فلا يمنع منه الأغنياء، ومن جاء إليه فلا يمنع من شرابه، ولهذا جاء إليه نور الدين وشرب من شرابه رحمه الله.

قلت: ويقول بعض الناس إنه لم تخمد منه النار منذ بني إلى زماننا هذا فالله أعلم)[157].

دفاعُه عن الفقهاء:

(كان يجمع الفقهاء عنده والمشايخ ويكرمهم ويعظمهم، وكان يحب الصالحين، وقد نال بعض الأمراء مرة عنده من بعض الفقهاء، وهو قطب الدين النيسابوري، فقال له نور الدين: ويحك إن كان ما تقول حقًّا فله من الحسنات الكثيرة الماحية لذلك ما ليس عندك مما يكفر عنه سيئات ما ذكرت إن كنت صادقًا، على أني والله لا أصدقك، وإن عدت ذكرته أو أحدًا غيره عندي بسوء لأوذينَّك، فكفَّ عنه ولم يذكره بعد ذلك)[158].

---

(156) المرجع السابق.

(157) البداية والنهاية (12/ 280).

(158) البداية والنهاية (12/ 281).

تواضعُه:

لقد اطمأنَّت نفوس الخلق إلى الملك العادل لأنَّه أخفض لهم جناحه، وألقى عن منكبيه رداء الكِبر، فكان لين الجانب سمح العود، يغلب عفوه عقوبته ولطفه سيفه، وساس الناس بسياسة من يأخذ الحق للضعيف من القوي، فرحمه الله وأسكنه الفردوس الأعلى:

ومما ذكروا عنه أنه: (لم يكن أحد من الأمراء يجلس بلا إذن سوى الأمير نجم الدين أيوب، وأما أسد الدين شيركوه ومجد الدين بن الداية نائب حلب، وغيرهما من الأكابر؛ فكانوا يقفون بين يديه، ومع هذا كان إذا دخل أحد من الفقهاء أو الفقراء قام له ومشى خطوات وأجلسه معه على سجادته في وقار وسكون، وإذا أعطى أحدًا منهم شيئًا مستكثرًا يقول: هؤلاء جند الله وبدعائهم ننصر على الأعداء، ولهم في بيت المال حق أضعاف ما أعطيهم، فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنة علينا)[159].

شدَّة اتّباعه للسنَّة:

كان رحمه الله منقادًا لأحكام القرآن، مذعنًا لما جاء في السنَّة، وقَّافًا عند حدود الله، معظِّمًا لشعائر الله، موقِّرًا للعلماء الربَّانيين والفقهاء المجتهدين، مجالسه ليس فيها لغو ولا يقربها باطل، وهي عامرة بتعاليم الكتاب والسنة ومصالح الأمة الإسلامية.

ومما ورد عنه أنه (قد سمع عليه جزء حديث وفيه: "فخرج رسول الله ﷺ متقلدًا السيف"، فجعل يتعجَّب من تغيير عادات الناس لما ثبت عنه عليه السلام، وكيف يربط الأجناد والأمراء على أوساطهم ولا يفعلون كما فعل رسول الله ﷺ، ثم أمر الجند بأن لا يحملوا السيوف إلا متقلِّديها، ثم خرج هو في اليوم

(159) المرجع السابق.

الثاني إلى الموكب وهو متقلِّد السيف وجميع الجيش كذلك، يريد بذلك الاقتداء برسول الله ﷺ، فرحمه الله)[160].

السَّببُ الذي جعل الملكَ يلغي المكوس[161]:

(قصَّ عليه وزيره موفق الدِّين خالد بن محمد بن نصر القيسراني الشاعر أنه رأى في منامه كأنَّه يغسل ثياب الملك نور الدين، فأمره بأن يكتب مناشير بوضع المكوس والضرائب عن البلاد، وقال له هذا تأويل رؤياك. وكتب إلى الناس ليكون منهم في حلٍّ مما كان أخذ منهم، ويقول لهم إنما صرف ذلك في قتال أعدائكم من الكفرة والذَّبِّ عن بلادكم ونسائكم وأولادكم. وكتب بذلك إلى سائر ممالكه وبلدان سلطانه، وأمر الوعَّاظ أن يستحلوا له من التجارّ، وكان يقول في سجوده: اللهمَّ ارحم المكَّاس العشَّار الظالم محمود الكلب، وقيل إنَّ برهان الدين البلخي أنكر على الملك نور الدين في استعانته في حروب الكفار بأموال المكوس، وقال له مرة: كيف تنصرون وفي عساكركم الخمور والطبول والزمور؟ ويقال إن سبب وضعه المكوس عن البلاد أنَّ الواعظ أبا عثمان المنتخب ابن أبي محمد الواسطي- وكان من الصالحين الكبار، وكان هذا الرجل ليس له شيء ولا يقبل من أحد شيئًا، إنما كانت له جبة يلبسها إذا خرج إلى مجلس وعظه، وكان يجتمع في مجلس وعظه الألوف من الناس- أنشد نور الدين أبياتًا تتضمن ما هو متلبس به في ملكه، وفيها تخويف وتحذير شديد له:

مثِّل وقوفك أيُّها المغرور ... يوم القيامة والسماء تمور
إن قيل نور الدِّين رحت مسلَّمًا ... فاحذر بأن تبقى ومالك نور
أنهيتَ عن شرب الخمور وأنت في ... كأسِ المظالم طائش مخمور
عطَّلت كاسات المدام تعفُّفًا ... وعليك كاسات الحرام تدور

(160) البداية والنهاية (12/ 281).

(161) قال النووي [شرح النووي على مسلم (11/ 31)]: "المكس: هو ما ينتقصه ويأخذه من أموال الناس". وقال الشوكاني [نيل الأوطار (7/ 132)]: "(صاحب مَكس) بفتح الميم وسكون الكاف بعدها مهملة: هو من يتولى الضرائب التي تؤخذ من الناس بغير حق".

مـــاذا تقـــول إذا نقلـــت إلى البِلـــى	فـــردًا وجـــاءك منكـــر ونكـــير؟
مـــاذا تقـــول إذا وقفـــت بموقـــف	فـــردًا ذلـــيلًا والحســـاب عســـير؟
وتعلَّقـــت فيـــك الخصـــوم وأنـــت في	يـــوم الحســـاب مسلســـل مجـــرور
وتفرَّقـــت عنـــك الجنـــود وأنـــت في	ضـــيق القبـــور موسَّـــد مقبـــور
ووددت أنَّـــك مـــا وليـــت ولايـــة	يومًـــا ولا قـــال الأنـــام أمـــير
وبقيـــت بعـــد العـــز رهـــن حفـــيرة	في عـــالم المـــوتى وأنـــت حقـــير
وحشـــرت عريانًـــا حزينًـــا باكيًـــا	قلقًـــا ومالـــك في الأنـــام مجـــير
أرضـــيت أن تحيـــا وقلبـــك دارسٌ	عـــافي الخـــراب وجســـمك المعمـــور
أرضـــيت أن يحظـــى ســـواك بقربـــة	أبـــدًا وأنـــت معـــذَّب مهجـــور
مهِّـــد لنفســـك حجَّـــة تنجـــو بهـــا	يـــوم المعـــاد ويـــوم تبـــدو العـــور

فلما سمع نور الدين هذه الأبيات بكى بكاء شديدًا، وأمر بوضع المكوس والضرائب في سائر البلاد)[162].

عدم الميل عن الحقّ في سياسة الملك نور الدين لرعيته:

(كتب إليه الشيخ عمر بن الملا: إنَّ المفسدين قد كثروا، ويحتاج إلى سياسة ومثل هذا لا يجيء إلا بقتل وصلب وضرب، وإذا أخذ إنسان في البرية من يجيء يشهد له؟ فكتب إليه الملك نور الدين على ظهر كتابه: إنَّ الله خلق الخلق وشرع لهم شريعة وهو أعلم بما يصلحهم، ولو علم أن في الشريعة زيادة في المصلحة لشرعها لنا، فلا حاجة بنا إلى الزيادة على ما شرعه الله تعالى، فمن زاد فقد زعم أن الشريعة ناقصة فهو يكملها بزيادته، وهذا من الجرأة على الله وعلى ما شرعه، والعقول المظلمة لا تهتدي، والله

(162) البداية والنهاية (12/ 281).

سبحانه يهدينا وإياك إلى صراط مستقيم. فلما وصل الكتاب إلى الشيخ عمر الملا جمع الناس بالموصل وقرأ عليهم الكتاب وجعل يقول: انظروا إلى كتاب الزاهد إلى الملك، وكتاب الملك إلى الزاهد)[163].

رثاء الشُّعراء لنور الدِّين زنكي:

وما أحسن ما قاله العماد:

عجبت من الموت لما أتى ... إلى ملك في سجايا ملك
وكيف ثوى الفلك المستدير ... في الأرض وسط فلك

وقال حسان الشاعر، الملقَّب بالعرقلة في مدرسة نور الدين لما دُفن بها رحمه الله تعالى:

ومدرسة ستدرس كل شيء ... وتبقى في حمى علم ونسكِ
تضوع ذكرها شرقًا وغربًا ... بنور الدين محمود بن زنكي
يقول وقوله حق وصدق ... بغير كناية وبغير شكِّ
دمشق في المدائن بيت ملكي ... وهذي في المدارس بنت ملكي [164]

بشارة النَّبي ﷺ له بالنَّصر:

(قال سبط الجوزي: حكى لي نجم الدين بن سلام عن والده: أنَّ الفرنج لما نزلت على دمياط، ما زال نور الدين عشرين يومًا يصوم، ولا يفطر إلا على الماء، فضعف وكاد يتلف، وكان مهيبًا، ما يجسر أحد يخاطبه في ذلك.

فقال إمامه يحيى: إنه رأى النبي ﷺ في النوم يقول: يا يحيى، بشِّر نور الدين برحيل الفرنج عن دمياط.

(163) البداية والنهاية (12/ 282).
(164) المرجع السابق.

فقلت: يا رسول الله! ربما لا يصدقني. فقال: قل له: بعلامة يومٍ حارم.

وانتبه يحيى، فلما صلَّى نور الدين الصبح، وشرع يدعو، هابه يحيى، فقال له: يا يحيى، تحدثني أو أحدثك؟

فارتعد يحيى، وخرس، فقال: أنا أحدِّثك، رأيت النبي ﷺ هذه الليلة، وقال لك كذا وكذا.

قال: نعم، فبالله يا مولانا، ما معنى قوله بعلامة يومٍ حارم؟

فقال: لما التقينا العدو، خفت على الإسلام، فانفردت، ونزلت، ومرغت وجهي على التراب، وقلت: يا سيدي من محمود في البين، الدين دينك، والجند جندك، وهذا اليوم افعل ما يليق بكرمك. قال: فنصرنا الله عليهم)[165].

* * *

(165) سير أعلام النبلاء (20/ 538).

سُلْطَانُ العُلَمَاءِ: العِزُّ بنُ عَبدِ السَّلَام رحمه الله

نسبُه ومولدُه ووفاتُه:

هو شيخ الإسلام ومفتي الأنام، بقية السَّلف وسلطان العلماء[166] عِزُّ الدِّين أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن، السلمي، الدمشقي[167]، الشافعي. ولد سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمسمائة بدمشق، ووافاه الأجل سنة ستين وستمائة هجرية[168].

كان رحمه الله مضرب المثل بعلمه، وكان من أهل العرفان والعلم الثاقب؛ بل هو من أعيان العلماء الذين ذاع صيتهم في الآفاق، صاحب الأقوال الجميلة، والمواقف الرصينة، لم يختر أن يكون عالِمًا لسلطان؛ بل قُدِّر له أن يكون سلطان العلماء، وحُقَّ له ذلك؛ فمواقفه الثابتة في نصح السَّلاطين ونهيهم عن المنكر يشهد له بذلك، حتى إنَّ الشيخ رحمه الله لَمَّا سُجِن في الشام سخَّر الله له خيرة المشايخ في زمانه ينافحون عنه ويذبُّون عن عرضه، ومن ذلك ما كان من:

الشيخ العلَّامة جمال الدين الحصيري، شيخ الحنفية في زمانه، وكان قد جمع بين العلم والعمل، ركب حمَّارا له وحوله أصحابه وقصد السلطان، فلما بلغ الملك الأشرف دخول الحصيري إلى القلعة أرسل إليه خاصته يتلقَّونه، وأمرهم أن يدخلوه إلى دار الإمارة راكبًا على حماره، فلما رآه السلطان وثب قائمًا ومشى إليه وأنزله عن حماره، وأجلسه على تكرمته واستبشر بوفوده عليه، وكان في رمضان قريب غروب الشمس، فلما دخل وقت المغرب وأذَّن المؤذِّن صلَّوا صلاة المغرب، وأحضر للسلطان قدح شراب فتناوله وناوله للشيخ، فقال له

---

(166) ابن دقيق العيد هو الذي لقب الشيخ عز الدين سلطان العلماء. وعن الشيخ جمال الدين ابن الحاجب أنه قال: "ابن عبد السلام أفقه من الغزالي". [طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي (8/ 214)].

(167) ولكن أصل الشيخ من المغرب ومولده دمشق ووفاته بالديار المصرية. **ينظر**: معجم المفسرين «من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر» (1/ 287).

(168) **ينظر**: تاريخ الإسلام (14/ 933)، والبداية والنهاية (13/ 235)، والعبر في خبر من غبر (3/ 299)، وديوان الإسلام (3/ 290)، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي (8/ 209)، والمنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي (7/ 286).

الشيخ: "ما جئت إلى طعامك ولا إلى شرابك"، فقال له السلطان: "يرسم الشيخ ونحن نمتثل مرسومه"، فقال له: "أيش بينك وبين ابن عبد السلام، وهذا رجل لو كان في الهند أو في أقصى الدنيا كان ينبغي للسلطان أن يسعى في حلوله في بلاده، لتتم بركته عليه وعلى بلاده، ويفتخر به على سائر الملوك"[169].

بل إنَّ السلطان حارَ معه لما فرض عليه الإقامة الجبرية، ولكن الشيخ استأنس بها وجعلها منحة من الله؛ فقال السلطان: "لمن حضره قولوا لي ما أفعل به، هذا رجل يرى العقوبة نعمة اتركوه، بيننا وبينه الله"[170].

العِزُّ بن عبد السلام يبيع الأمراء الأتراك في سوق النخاسة!

(ذُكر أنَّ الشيخ لم يثبت عنده أنَّ أمراء الدولة -في عهد المماليك- من الأتراك أحرارٌ، وأن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين، فبلغهم ذلك فعظم الخطب عندهم فيه، وأضرم الأمر والشيخ مصمم لا يصحح لهم بيعًا ولا شراءً ولا نكاحًا، وتعطلت مصالحهم بذلك، وكان من جملتهم نائب السلطنة فاستشاط غضبًا فاجتمعوا وأرسلوا إليه فقال: "نعقد لكم مجلسًا وينادى عليكم لبيت مال المسلمين، ويحصل عتقكم بطريق شرعي"، فرفعوا الأمر إلى السلطان، فبعث إليه فلم يرجع فجرت من السلطان كلمة فيها غلظة حاصلها الإنكار على الشيخ في دخوله في هذا الأمر، وأنه لا يتعلق به، فغضب الشيخ وحمل حوائجه على حمار وأركب عائلته على حمار آخر، ومشى خلفهم خارجًا من القاهرة قاصدًا نحو الشام، فلم يصل إلى نحو نصف بريد إلا وقد لحقه غالب المسلمين، لم تكد امرأة ولا صبي ولا رجل لا يؤبه إليه يتخلَّف، لا سيما العلماء والصلحاء والتجار وأنحاؤهم، فبلغ السلطان الخبر وقيل له متى راح ذهب ملكك، فركب السلطان بنفسه ولحقه واسترضاه وطيَّب قلبه فرجع، واتفقوا معهم على أنه ينادى على الأمراء فأرسل إليه نائب السلطنة بالملاطفة فلم يفد فيه فانزعج النائب، وقال: "كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض؟ والله لأضربنه بسيفي هذا"، فركب بنفسه في جماعته وجاء إلى بيت الشيخ، والسيف مسلول في يده فطرق الباب فخرج ولد الشيخ، أظنه عبد اللطيف، فرأى من نائب

(169) طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي (8/ 236).

(170) المرجع السابق.

السلطنة ما رأى، فعاد إلى أبيه وشرح له الحال فما اكترث لذلك ولا تغير، وقال: يا ولدي أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله، ثم خرج كأنه قضاء الله قد نزل على نائب السلطنة فحين وقع بصره على النائب يبست يد النائب، وسقط السيف منها وأرعدت مفاصله، فبكى وسأل الشيخ أن يدعو له، وقال: يا سيدي خبر أيش تعمل، قال: أنادي عليكم وأبيعكم، قال: ففيم تصرف ثمننا قال في مصالح المسلمين، قال: من يقبضه؟ قال: أنا، فتم له ما أراد ونادى على الأمراء واحدًا واحدًا، وغالى في ثمنهم وقبضه وصرفه في وجوه الخير، وهذا ما لم يسمع بمثله عن أحد، رحمه الله تعالى ورضي عنه)[171].

ذكر واقعة التتار وما كان من سلطان العلماء فيها:

لم يكن سلطان العلماء بن عبد السلام من القاعدين عن الجهاد؛ بل كان فارسًا مغوارًا يغير بسيفه ولسانه، وقد كان الناس يوقِّرونه ويهابونه ويسمعون نصحه في الجهاد وغيره؛ حتى كان سببًا في نصر الله للمؤمنين في ذلك الزمان.

قال السبكي: "وحاصلها أن التتار لما دهمت البلاد عقيب واقعة بغداد وجبن أهل مصر عنهم، وضاقت بالسلطان وعساكره الأرض؛ استشاروا الشيخ عز الدين رحمه الله فقال: اخرجوا وأنا أضمن لكم على الله النصر، فقال السلطان له: إن المال في خزانتي قليل وأنا أريد أن أقترض من أموال التجار، فقال له الشيخ عز الدين: إذا أحضرت ما عندك وعند حريمك وأحضر الأمراء ما عندهم من الحلي الحرام، وضربته سكة ونقدًا وفرقته في الجيش، ولم يقم بكفايتهم ذلك الوقت اطلب القرض، وأما قبل ذلك فلا، فأحضر السلطان والعسكر كلهم ما عندهم من ذلك بين يدي الشيخ، وكان الشيخ له عظمة عندهم وهيبة بحيث لا يستطيعون مخالفته فامتثلوا أمره فانتصروا"[172].

محاربتُه للبدع:

(171) طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي (8/ 216).
(172) طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي (8/ 215).

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة، أحد تلامذة الشيخ: "وكان -العزُّ- أحقَّ الناس بالخطابة والإمامة، وأزال كثيرًا من البدع التي كان الخطباء يفعلونها من دقِّ السَّيف على المنبر، وغير ذلك، وأبطل صلاتَيَ الرغائب ونصف شعبان، ومنع منهما"[173].

مؤلفاتُه:

كان الشيخ رحمه الله غزيرَ العلم جمَّ الفوائد، خبيرًا بدقائق المسائل، يرجع إليه العلماء في حلِّ مشكل الفروع، ومع تأخُّر الشيخ في طلب العلم والجلوس عند العلماء؛ إلا أنه بعد أن تفقَّه في دين الله نبغ فيه ونافس كباره، بل وفاق علماء زمانه علمًا وعملًا، وكان من ثمرات علمه تأليفه لكثيرٍ من الكتب البديعة والفوائد الممتعة والمسائل النافعة.

ومن كتبه: (التفسير الكبير)، و(مختصر رعاية المحاسبي)، و(الإلمام في أدلة الاحكام)، والقواعد الكبرى، والقواعد الصغرى، و(الفوائد)، و(قواعد الأحكام في إصلاح الأنام)، و(ترغيب أهل الإسلام في سكن الشام)، و(بداية السول في تفضيل الرسول)، و(فوائد البلوى والمحن) و(الغاية في اختصار النهاية)، و(الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز)، و(بيان أحوال الناس يوم القيامة)، و(الفرق بين الإيمان والإسلام)[174].

هيبة الشَّيخ عند العامَّة والخاصَّة:

كان الشيخ جليل القدر، عالي الكعب، يحبُّه الصغير والكبير، ويهابه العدوُّ والصديق، وما ذاك إلا لعظم قدره، وكبير آثاره، فالشَّيخ رحمه الله جعل خوفه من الله أعلى من خوفه من البشر؛ فخافه كل شيء، وقد قدر الله فجعل الهيبة منه في صدور الخلق.

---

(173) طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي (8/ 210).

(174) **ينظر**: طبقات الشافعية الكبرى (8/ 247)، والمنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي (7/ 288)، والبداية والنهاية (13/ 235)، وديوان الإسلام (3/ 290).

(ومما يدل على منزلته الرفيعة عندهم أنَّ الملك الظاهر بيبرس لم يبايع واحدًا من الخليفة المستنصر والخليفة الحاكم، إلا بعد أن تقدَّمه الشيخ عزُّ الدين للمبايعة، ثم بعده السلطان ثم القضاة، ولما مرَّت جنازة الشيخ عز الدين تحت القلعة، وشاهد الملك الظاهر كثرة الخلق الذين معها، قال لبعض خواصِّه: اليوم استقر أمري في الملك، لأنَّ هذا الشيخ لو كان يقول للناس اخرجوا عليه لانتزع الملك مني)[175].

العزُّ بن عبد السَّلام ينهى السُّلطان عن المنكرات:

(قال الباجي: طلع شيخنا عز الدين مرة إلى السلطان في يوم عيد إلى القلعة، فشاهد العساكر مصطَّفين بين يديه ومجلس المملكة وما السلطان فيه يوم العيد من الأبهة، وقد خرج على قومه في زينته على عادة سلاطين الديار المصرية، وأخذت الأمراء تقبِّل الأرض بين يدي السلطان، فالتفت الشيخ إلى السلطان وناداه: يا أيوب ما حجتك عند الله إذا قال لك ألم أبوئ لك ملك مصر، ثم تبيح الخمور، فقال: هل جرى هذا؟ فقال: نعم الحانة الفلانية يباع فيها الخمور، وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة، يناديه كذلك بأعلى صوته والعساكر واقفون، فقال: يا سيدي هذا أنا ما عملته هذا من زمان أبي، فقال: أنت من الذين يقولون: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ**﴾ [الزخرف: 22]، فرسم السلطان بإبطال تلك الحانة.

قال الباجي فسألت الشيخ لما جاء من عند السلطان، وقد شاع هذا الخبر: يا سيدي كيف الحال؟ فقال: يا بني رأيته في تلك العظمة فأردت أن أهينه لئلا تكبر نفسه فتؤذيه، فقلت: يا سيدي أما خفته فقال: والله يا بني استحضرت هيبة الله تعالى فصار السلطان قدامي كالقِطِّ)[176].

كرامةٌ حصَلت لسُلطان العُلَماء:

(175) طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي (8/ 215).

(176) طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي (8/ 211).

من منهج أهل السنة والجماعة أنهم يؤمنون بالكرامات، والكرامة لا تُعطى إلا لشخص ضعيف الإيمان فتكون سببًا في هدايته وتقوية إيمانه، أو تعطى لقوي الإيمان لتثبيته على ما هو عليه من الحق، أو تعطى لتصديق دعوة ولي من أولياء الله، ولا تسمى كرامةً حتى يكون صاحبها من أهل التوحيد، وأما إن كان من أهل الشرك والفجور فتكون شعوذةً -والعياذ بالله-.

والشيخ رحمه الله إنما أعطاه الله هذه الكرامة لأنه من أهل الحق، والله أعلم.

وهذه قصة الكرامة: "كان الشيخ عز الدين في أول أمره فقيرًا جدًّا ولم يشتغل إلا على كبر، وسبب ذلك أنه كان يبيت في الكلاسة[177] من جامع دمشق، فبات بها ليلة ذات برد شديد فاحتلم فقام مسرعًا ونزل في بركة الكلاسة فحصل له ألم شديد من البرد، وعاد فنام فاحتلم ثانيًا فعاد إلى البركة، لأن أبواب الجامع مغلقة وهو لا يمكنه الخروج، فطلع فأغمي عليه من شدة البرد، ثم سمع النداء في المرة الأخيرة يا ابن عبد السلام أتريد العلم أم العمل فقال الشيخ عز الدين العلم لأنه يهدي إلى العمل فأصبح وأخذ التنبيه فحفظه في مدة يسيرة وأقبل على العلم فكان أعلم أهل زمانه ومن أعبد خلق الله تعالى.

وقال أبو زكريا يحيى ابن علي السبكي: كان في الريف شخص يقال له عبد الله البلتاجي من أولياء الله تعالى وكانت بينه وبين الشيخ عز الدين صداقة وكان يهدي له في كل عام فأرسل إليه مرة حمل جمل هدية ومن جملته وعاء فيه جبن فلما وصل الرسول إلى باب القاهرة انكسر ذلك الوعاء وتبدد ما فيه فتألم الرسول لذلك، فرآه شخص ذمي فقال له: لم تتألم عندي ما هو خير منه، قال الرسول فاشتريت منه بدله وجئت فما كان إلا بقدر أن وصلت إلى باب الشيخ، ولم يعلم بي ولا بما جرى لي غير الله تعالى، وإذا بشخص نزل من عند الشيخ وقال اصعد بما جئت، فناولته شيئًا فشيئًا إلى أن سلمته ذلك الجبن، فطلع ثم نزل فقلت أعطيته للشيخ فقال أخذ الجميع إلا الجبن ووعاءه، فإنه قال لي ضعه على الباب، فلما طلعت أنا قال لي:

(177) هو الموضع الذي يُعمَلُ فيه الكِلْس، والكلس هو الجير.

يا ولدي ليش تفعل هذا، إن المرأة التي حلبت لبن هذا الجبن كانت يدها متنجسة بالخنزير ورده، وقال: سلم على أخي"[178].

موقفٌ جميلٌ مع زوجته:

(حكى قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة رحمه الله: أن الشيخ لما كان بدمشق وقع مرَّة غلاء كبير حتى صارت البساتين تباع بالثمن القليل، فأعطته زوجته مصاغًا لها وقالت: اشتر لنا به بستانًا نصيف به، فأخذ ذلك المصاغ وباعه وتصدق بثمنه، فقالت: يا سيدي اشتريت لنا؟ قال: نعم بستانًا في الجنة، إني وجدت الناس في شدة فتصدقت بثمنه، فقالت له جزاك الله خيرًا)[179].

السُّلطان يجعل مقابل الإفراج عن العزِّ بن عبد السلام أن يقبِّل يده، فماذا كان الرَّدُّ؟

(لما اجتمع رسول السلطان بالشيخ شرع في مسايسته وملاينته ثم قال له: بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وزيادة، أن تنكسر للسلطان وتقبِّل يده لا غير، فقال له: والله يا مسكين ما أرضاه أن يقبِّل يدي فضلًا أن أقبِّل يده، يا قوم أنتم في وادٍ وأنا في وادٍ، والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به)[180].

الفرنج يُعظِّمون الشَّيخ ابنَ عبدِ السلام:

لما أخذ رسولُ السلطان الشَّيخَ، واعتقله في خيمة إلى جانب خيمة السلطان، وكان الشيخ يقرأ القرآن والسلطان يسمعه، فقال يومًا لملوك الفرنج: "تسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القرآن؟ قالوا: نعم، قال: هذا

(178) طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي (8/ 212).
(179) طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي (8/ 214).
(180) طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي (8/ 244).

أكبر قسوس المسلمين، وقد حبسته لإنكاره عليَّ تسليمي لكم حصون المسلمين، وعزلته عن الخطابة بدمشق وعن مناصبه، ثم أخرجته فجاء إلى القدس وقد جدَّدت حبسه واعتقاله لأجلكم، **فقالت له ملوك الفرنج: لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجليه وشربنا مرقتها"**[181].

سببُ خروجه من الشَّام الى مصر:

(وكان سبب خروجه من الشام إنكاره على الصالح إسماعيل تسليمه صغد والثقيف إلى الفرنج، ووافقه الشيخ أبو عمرو بن الحاجب المالكي، فأخرجهما من بلده فسار أبو عمرو إلى الناصر داود صاحب الكرك فأكرمه، وسار ابن عبد السلام إلى الملك الصالح أيوب بن الكامل صاحب مصر فأكرمه وولاه قضاء مصر وخطابة الجامع العتيق)[182].

من أقوال العزّ بن عبد السلام:

قال العز بن عبد السلام: "يا بني استحضرت هيبة الله تعالى فصار السلطان قدَّامي كالقط!"[183].

وقال رحمه الله: "إذا بلغك أن أحدًا من الأئمة شدَّد النكير على أحد من أقرانه، فإنما ذلك خوفًا على أحد أن يفهم من كلامه خلاف مراده، لا سيما علم العقائد فإن الكلام في ذلك أشد"[184].

وقال: "ما رأيت في كتب الإسلام في العلم مثله في جودته وتحقيق ما فيه، ولم تطب نفسي بالفتيا حتى صارت نسخة من المغني عندي"[185].

---

(181) طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي (8/ 244).

(182) البداية والنهاية (13/ 235). **وينظر**: طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي (8/ 243).

(183) طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي (8/ 211).

(184) الضعفاء لأبي زرعة الرازي في أجوبته على أسئلة البرذعي (3/ 974).

(185) الشيخ محمد بن عبد الوهاب المجدد المفترى عليه (ص: 214)، وسير أعلام النبلاء (8/ 142).

وقال العزُّ بن عبد السلام في ابنِ عربي: "شيخ سوء كذاب، يقول بقدم العالم، ولا يحرم فرجًا"[186].

وقال رحمه الله: "إذا اجتمعت مصالح ومفاسد فإن أمكن تحصيل المصالح ودرء المفاسد فعلنا ذلك امتثالًا لأمر الله تعالى فيهما، لقوله ﷻ: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾ [التغابن: 16]، وإنَّ تعذر الدرء والتحصيل فإن كانت المفسدة أعظم من المصلحة درأنا لمفسدة ولا نبالي بفوات المصلحة"[187].

وقال: "مصر تفتخر برجلين في طرفيها ابن المنير بالإسكندرية، وابن دقيق العيد بقوص"[188].

وقال: "الغالب في الجهاد أفضل من القتيل"[189].

دعوة ابن عبد السَّلام مستجابة:

(لما ناكد عبد القادر بن محمد العز بن عبد السلام جاره وشافهه بالمكروه، فيقال إن العز بن عبد السلام دعا عليه فلم يلبث أن ابتلى بالجذام، ولا زال يتزايد إلى أن استحكم منه سيما بعد موت الشهاب بن بطيخ، أحد الأطباء مع كثرة ما كان يلازمه من التهكم والازدراء والتهتك، وبلغني أنه بالغ في التخضع للعز والتمس منه العفو رجاء العافية فما قدرت، ولم يترك بعد ابتلائه الاشتغال بالعلم ولا التردد إلى المشايخ، وكنت أتألم له سيما حين قال لي عند موادعته وأنا متوجِّه لمكة: تمنيت أن يذهب مني كل شيء وأكون جالسًا أستعطي تحت دكان ويذهب عني هذا العارض، بحيث لما وصلت لمكة شربت ماء زمزم بقصد شفائه وعافيته فلم يلبث أن جاء الخبر بموته)[190].

(186) سير أعلام النبلاء (43/ 47).
(187) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، للعز بن عبد السلام (1/ 98).
(188) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (1/ 269).
(189) طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي (8/ 251).
(190) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (4/ 289).

و(ذكر واقعة الفرنج على دمياط: وكانت قبل ذلك وصلوا إلى المنصورة في المراكب واستظهروا على المسلمين وكان الشيخ مع العسكر وقويت الريح، فلما رأى الشيخ حال المسلمين نادى بأعلى صوته مشيرًا بيده إلى الريح: يا ريح خذيهم، عدة مرار، فعادت الريح على مراكب الفرنج فكسرتها، وكان الفتح وغرق أكثر الفرنج، وصرخ من بين يدي المسلمين صارخ: الحمد لله الذي أرانا في أمة محمد ﷺ رجلًا سخَّر له الريح)[191].

مدح الشُّعَراء له:

أنشد عزُّ الدِّين من النظم للطلبة بيتًا، وقال لهم أجيزوه وهو:

لو كان فيهم من عراه غرام ... ما عنفوني في هواه ولاموا

فأجازه الشيخ شمس الدين عمر بن عبد العزيز بن الفضل الأسواني قاضي أسوان، فقال:

لكنهم جهلوا لذاذة حسنه ... وعلمتها ولذا سهرت وناموا
لو يعلمون كما علمت حقيقة ... جنحوا إلى ذاك الجناب وهاموا
أو لو بدت أنواره لعيونهم ... خرُّوا ولم تثبت لهم أقدام

منها:

فبقيت أنظره بكل مصور ... وبكل ملفوظ به استعجام
وأراه في صافي الجداول إن جرت ... وأراه إن جاد الرياض غمام

ومنها:

لم يثني عمن أحب ذوابل ... سمر وأبيض صارم صمصام

(191) طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي (8/ 216).

مـولاي عـز الـدين عـز بـك العـلا | فخـرا فـدون حـذاك منـه الهـام
لمـا رأينـا منـك علمـا لم يكـن | في الـدرس قلنـا إنـه إلهـام
جـاوزت حـد المـدح حـتى لم يطـق | نظمـا لفضـلك في الـورى النظـام

وآخرها:

فعليـك يا عبـد العزيـز تحيـة | وعليـك يا عبـد العزيـز سـلام

وأنشد الأبيات كلها للشيخ في مجلس الدرس وهو يسمع إليها، ولما قضاها قال له أنت إذا فقيه شاعر.

ومدحه الأديب أبو الحسين الجزاز بقصيدة بديعة، أولها:

سـار عبـد العزيـز في الحكـم سـيرًا | لم يسـره سـوى ابـن عبـد العزيـز
عمنـا حكمـه بفضـل بسـيط | شـامل للـورى ولفـظ وجيـز[192]

سلطان العلماء يتنبَّأ بموته:

حُكي أنَّ شخصًا جاء إليه وقال له رأيتك في النوم تنشد:

وكنـت كـذي رجلـين رجـل صـحيحة | ورجـل رمـى فيهـا الزمـان فشـلت

فسكت ساعة، ثم قال أعيش من العمر ثلاثًا وثمانين سنة، فإن هذا الشعر لكثير عزة ولا نسبة بيني وبينه غير السن، أنا سني وهو شيعي، وأنا لست بقصير وهو قصير، ولست بشاعر وهو شاعر، وأنا سلمي وليس هو بسلمي لكنه عاش هذا القدر، قلت: فكان الأمر كما قاله رحمه الله[193].

وفاته وتشييع جنازته:

(192) طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي (8/ 245، 246).

(193) طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي (8/ 246).

لقد خسر المسلمون عالِمًا من علمائها العاملين، وهو الشيخ الفقيه المجاهد عز الدين بن عبد السلام رَحِمَهُ اللَّهُ وقد (مات فِي عاشر جُمَادَى الأولى سنة ستين وستمائة، وشهد جنازته الملك الظاهر والخلائق.

وقال الإمام أبو شامة: شيعه الخاص والعام، ونزل السُّلطان، وعُمِل عزاؤه فِي الخامس والعشرين من الشهر بجامع العقيبة، رَحِمَهُ اللَّهُ)[194].

***

(194) تاريخ الإسلام (14/ 935). **وينظر**: البداية والنهاية (13/ 236)، وديوان الإسلام (3/ 290).

محمَّد بن المنكدر رحمه الله:

نسبُه ومولدُه ووفاتُه:

هو الإمام الزَّاهد العابد أبو عبد الله محمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهدير بن عبد العزى بن عامر بن الحارث بن حارثة بن سعد بن تيم بن مرة المدني. وأمه أم ولد[195]. ومات ابن المنكدر بالمدينة سنة ثلاثين. أو إحدى وثلاثين ومائة[196].

خشوعُه وشدَّةُ خوفِه من اللَّه:

كان رحمه الله يذكِّر كلَّ من رآه بالآخرة؛ لشدَّة إقباله على الله، وعظيم خشيته من ربِّه، وكثرة بكائه شوقًا إلى خالقه، وخوفًا من عقابه، فقد كان رحمه الله أنيسه القيام وجليسه القرآن وصاحبه الذكر، إذا بكى من خشية الله أبكى من حوله.

(فعن يحيى بن الفضل الأنيسي قال: "سمعت بعض من يذكر عن محمد بن المنكدر: أنه بينما هو ذات ليلة قائم يصلي إذ استبكى وكثر بكاؤه حتى فزع أهله، وسألوه ما الذي أبكاه فاستعجم عليهم، وتمادى في البكاء، فأرسلوا إلى أبي حازم فأخبروه بأمره، فجاء أبو حازم إليه، فإذا هو يبكي، قال: يا أخي، ما الذي أبكاك؟ قد رعت أهلك، أفمن علَّة؟ أم ما بك؟ قال: فقال: "إنه مرت بي آية في كتاب الله عز وجل، قال: وما هي؟ قال: قول الله تعالى: ﴿**وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ**﴾ [الزمر: 47]"، قال: فبكى أبو حازم أيضًا معه واشتد بكاؤهما، قال: فقال بعض أهله لأبي حازم: جئنا بك لتفرج عنه فزدته، قال: فأخبرهم ما الذي أبكاهما".

(195) الطبقات الكبرى (5/ 357). **وينظر**: تاريخ دمشق، لابن عساكر (56/ 37).
(196) الطبقات الكبرى (5/ 361).

وعن عكرمة، عن محمد بن المنكدر: "أنه جزع عند الموت، فقيل له: لم تجزع؟ فقال: أخشى آية من كتاب الله ﷻ، قال الله تعالى: ﴿**وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ**﴾ [الزمر: 47] وإني أخشى أن يبدو لي من الله ما لم أكن أحتسب".

وعن مالك بن أنس، قال: "كان محمد بن المنكدر سيد القراء، ولا يكاد أحد يسأله عن حديث إلا كان يبكي".

وعن عمر بن محمد بن المنكدر، قال: "كنت أمسك على أبي المصحف قال: فمرَّت مولاة له، فكلَّمها، فضحك إليها، ثم أقبل يقول: إنا لله، إنا لله، حتى ظننت أنه قد حدث شيء، فقلت: ما لك؟ فقال: أما كان لي في القرآن شغل حتى مرت هذه فكلمتها"[197].

ثناءُ العُلماء عليه:

أما ابن المنكدر فقد سبق أقرانه بالفضل، وأقرَّ له الجميع بالحسنى؛ لأنه سبَّاق إلى الغايات ومقدام إلى الخيرات، لا تكاد تجد بابًا من أبواب الخير إلا ومحمد مغمور فيه! لذا فضَّله الناس وأثنوا عليه خيرًا:

فعن ابن أبي الزناد قال: "كان محمد بن المنكدر وصفوان بن سليم وأبو حازم وسليمان بن سحيم ويزيد بن خصيفة أهلَ عبادة وصلاة، وكانوا يجتمعون بعد العصر وبعد العشاء الآخرة فيتحدثون ولا يفترقون حتى يتكلم كل رجل منهم بكلمات، ويدعون بدعوات، وكانوا يترافقون ويوافون الموسم كل عام ومعهم أبو صخر الأيلي -وكان من العبَّاد- فيلقون عمر بن ذرٍّ فيقص عليهم ويذكرهم أمر الآخرة، فلا يزالون كذلك حتى ينقضي الموسم ثم لا يلتقون معه إلا في كل موسم"[198].

(197) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (3/ 147).
(198) الطبقات الكبرى (5/ 358).

(وقال سفيان: "كان المنكدر من معادن الصدق ويجتمع إليه الصالحون، قال وسمعت سفيان يقول لم ندرك أحدًا أجدر أن يقبل الناس منه".

وقال الشافعي حكاية عن غيره قال: "ومحمد بن المنكدر عندكم غاية في الثقة قلت والفضل في الدين والورع".

وعن يعقوب قال: "ابن المنكدر هو الغاية في الإتقان والحفظ والزهد وهو حجة")[199].

(وكان ثقة ورعًا عابدًا، قليل الحديث، يكثر الإسناد عن جابر بن عبد الله)[200].

وعن مالك قال: "كان محمد سيِّد القراء لا يكاد أحد يسأله عن حديث إلا كاد أن يبكي، وقال علي عن ابن عيينة بلغ سنه نيفًا وسبعين ولم أر أحدًا أجدر أن يحمل عنه"[201].

طولُ قيامِه للصلاة:

وأما صلاته فإنَّه لا تنقضي منها نهمته، ولا تفتر عنها عزيمته هي أنسه وقرَّة عينه، وفيها انشراح صدره ومناجاته لربه، تذهب همه وغمه؛ وهكذا هو حال الصالحين:

قالت أم محمد بن المنكدر: "يا بني لو نمت فقد طال سهرك، فقال لها: يا أمه إني لأرى الليل قد أقبل فيهولني سواده، فأصبح ولم تنقضِ نهمتي منه"[202].

تيسيرُ اللَّهِ لحاجة ابن المنكدر:

(199) تاريخ دمشق، لابن عساكر (56/ 45).
(200) الطبقات الكبرى (5/ 361). **وينظر**: تاريخ دمشق، لابن عساكر (56/ 41).
(201) التاريخ الكبير للبخاري (1/ 220).
(202) تاريخ دمشق، لابن عساكر (56/ 48).

الصالح حبيب ربِّه، فلا يكاد يطلب حاجة إلا تيسَّرت له جزاءً وفاقًا، وكان ابن المنكدر من هؤلاء الذين يقضي الله لهم حوائجهم ويدفع عنهم مصائبهم ويذهب عنهم غمومهم، وهذا ما حدث له مع عائشة رضي الله عنها: (فعن أبي معشر قال: دخل المنكدر على عائشة فقال: إني قد أصابتني حاجة فأعينيني، فقالت: ما عندي شيء، لو كانت عندي عشرة آلاف لبعثت بها إليك، فلما خرج من عندها جاءتها عشرة آلاف من عند خالد بن أسيد، فقالت ما أوشك ما ابتليت! قال: ثم أرسلت في إثره، فدفعتها إليه، فدخل السوق فاشترى جارية بألفي درهم، فولدت له ثلاثة، فكانوا عباد المدينة: محمدا، وأبا بكر، وعمر، بني المنكدر)[203].

ثناءُ النَّاس عليه:

(عن سعيد بن عامر، قال: دخل أعرابي المدينة فرأى حال بني آل المنكدر، وموقعهم من الناس، وفضلهم، ثم خرج فلقيه رجل، فقال: كيف تركت أهل المدينة؟ قال: بخير، وإن استطعت أن تكون من آل بني المنكدر فكن منهم)[204].

بكاءُ ابن المنكدر:

كان رحمه الله رجلًا بكَّاء من خشية الله دائم الحزن، لذا تسيل مذارف عينيه إذا تلا القرآن، وتسرع عبراته إذا وقف للصلاة بين يدي الله:

(عن سفيان بن عيينة قال: "كان محمد بن المنكدر إذا بكا مسح وجهه ولحيته من دموعه، ويقول بلغني أن النار لا تأكل موضعًا مسَّته الدُّموع"، وقال محمد: "قال الله تعالى: ﴿**نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (6) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ**﴾ [الهمزة: 6، 7] قال: تأكله النار حتى يبلغ فؤاده وهو حي، قال محمد بن المنكدر وما لأهل النار راحة غير العويل والبكاء".

(203) الطبقات الكبرى (5/ 357).

(204) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (3/ 150).

وقال عباد البغوي: "قرأت على محمد بن المنكدر آخر الزُّمر فبكى الشيخ بكاءً غير متباك، فقال حدثني عبد الله بن عمر قال: قرأ رسول الله ﷺ آخر الزمر وهو على المنبر فتحرك المنبر من تحته مرتين")[205].

نصيحةُ أمِّ ابن المنكدر له:

(عن ابن المنكدر قال: "قالت لي أمي: يا بني لا تمازح الصبيان فتهون عليهم")[206].

جار محمد يشكو البلاء ومحمد يشكر النعمة:

(عن سفيان، قال: "كان محمد بن المنكدر ربما قام من الليل يصلي، ويقول: كم من عين الآن ساهرة في رزء، وكان له جار مبتلى، فكان يرفع صوته من الليل يصيح، وكان محمد يرفع صوته بالحمد، فقيل له في ذلك، فقال: يرفع صوته بالبلاء، وأرفع صوتي بالنعمة")[207].

مجاهدة النَّفس عند محمد بن المنكدر:

عن الحارث الصواف، قال: قال محمد بن المنكدر: "كابدت نفسي أربعين سنة حتى استقامت"[208].

الشَّيخ يعظ العلماء:

عن عمر بن محمد بن المنكدر، قال: "بينا أنا جالس، مع أبي في مسجد رسول الله ﷺ إذ مر بنا رجل يحدث الناس ويفتيهم ويقص، قال: فدعاه أبي، فقال له: يا أبا فلان، إن المتكلم يخاف مقت الله ﷻ، وإن المستمع يرجو رحمة الله ﷻ"[209].

(205) تاريخ دمشق، لابن عساكر (56/ 50).
(206) تاريخ دمشق، لابن عساكر (56/ 57).
(207) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (3/ 146)، تاريخ دمشق لابن عساكر (56/ 49).
(208) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (3/ 147).

بعض أقوال محمد بن المنكدر:

عن محمد بن المنكدر، قال: "إن الله تعالى يحفظ العبد المؤمن في ولده وولد ولده، ويحفظه في دويرته وفي دويرات حوله، فما يزالون في حفظ وعافية ما كان بين ظهرانيهم".

وعن سفيان، قال: "صلَّى ابن المنكدر على رجل، فقيل له: تصلي على فلان فقال: إني أستحي من الله أن يعلم مني أن رحمته تعجز عن أحد من خلقه"(210).

و(قال عمر بن عبد العزيز لمحمد بن المنكدر أي الخصال أوضع للمرء؟ قال: "كثرة كلامه وإذاعته أسراره وثقته بكل أحد")(211).

وقال: "نعم العون على تقوى الله ﷻ الغنى".

(وعن ابن المنكدر، أنه سئل: أي الأعمال أحب إليك؟ قال: إدخال السرور على المؤمن، قالوا: فما بقي منك ما تستلذه؟ قال: الإفضال على الإخوان).

وقال: "إن من موجبات المغفرة إطعام المسكين السغبان".

وقال: "يمكنكم من الجنة إطعام الطعام وطيب الكلام"(212).

وقال محمد بن المنكدر: "الفقيه يدخل بين الله وبين عباده، فلينظر كيف يدخل".

=

(209) المرجع السابق.

(210) المرجع السابق.

(211) تاريخ دمشق، لابن عساكر (56/ 57).

(212) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (3/ 149).

وقال: "لو جمع حديد الدنيا كله ما خلا منها وما بقي؛ ما عدل حلقة من حلق السلسلة التي ذكرها الله تعالى في كتابه فقال: ﴿**فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا**﴾ [الحاقة: 32]".

وقال محمد بن المنكدر: "لا تمازح الصبيان فتهون عليهم ويستخفوا بحقك"(213).

حسن ظنّه باللَّه وقوَّة توكُّله على ربِّه:

عن محمد بن سوقة، قال: "كان محمد بن المنكدر يحج وعليه دين، فقيل له: أتحج وعليك دين؟ فقال: الحج أقضى للدَّيْن"(214).

كرمه وسخاؤه:

عن أبي معشر، قال: "كان محمد بن المنكدر بمنى، وكان سيدًا، يطعم الطعام، ويجتمع عنده القراء"(215).

عِظَم برِّه بأمِّه:

عن محمد بن المنكدر: "أنه كان يضع خدَّه على الأرض، ثم يقول لأمِّه: قومي ضعي قدمك على خدِّي"(216).

رؤية محمد بن المنكدر تذكِّر باللَّه:

(قال عبد العزيز بن يعقوب بن الماجشون، أخو يوسف، قال: قال أبي: إن رؤية محمد بن المنكدر لتنفعني في ديني)(217).

---

(213) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (3/ 153).
(214) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (3/ 149).
(215) المرجع السابق.
(216) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (3/ 150).

أمنية محمد وأصحابه تتحقَّق:

(عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أن محمد بن المنكدر وأصحابًا له كانوا في أرض الروم، فقال بعضهم: "لو كان الآن عندنا من جبن المكتبة الرطبة قال: فإذا بين أيديهم على الطريق مكتل مخيط عليه فيه جبن رطب، فقالوا: لو كان عندنا عسل فأكلنا به، فإذا بين أيديهم قارورة فيها عسل)[218].

قصة ابن المنكدر مع الرجل الصالح:

(قال: قال ابن المنكدر: "إني لليلة حذاء هذا المنبر جوف الليل أدعو، إذا إنسان عند أسطوانة مقنع رأسه، فأسمعه يقول: أي رب إن القحط قد اشتد على عبادك وإني مقسم عليك يا رب إلا سقيتهم، قال: فما كان إلا ساعة إذا بسحابة قد أقبلت، ثم أرسلها الله سبحانه، وكان عزيزًا على ابن المنكدر أن يخفى عليه أحد من أهل الخير، فقال: هذا بالمدينة ولا أعرفه، فلما سلم الإمام تقنَّع وانصرف، فاتبعه ولم يجلس للقاص حتى أتى دار أنس فدخل موضعًا، وأخرج مفتاحًا، ففتح ثم دخل، قال: ورجعت فلما سبحت أتيته فإذا أنا أسمع نجرًا في بيته فسلمت، ثم قلت: أدخل؟ قال: ادخل، فإذا هو ينجر أقداحًا يعملها، فقلت: كيف أصبحت أصلحك الله؟ قال: فاستشهدها وأعظمها مني، فلما رأيت ذلك قلت: إني سمعت إقسامك البارحة على الله ﷻ يا أخي، هل لك في نفقة تغنيك عن هذا، وتفرغك لما تريد من الآخرة؟ فقال: لا، ولكن غير ذلك لا تذكرني لأحد، ولا تذكر هذا عند أحد حتى أموت، ولا تأتني يا ابن المنكدر، فإنك إن تأتني شهرتني للناس، فقلت: إني أحب أن ألقاك، قال: القني في المسجد، وكان فارسيًّا"، قال: فما ذكر ذلك ابن المنكدر لأحد حتى مات الرجل ﷺ، قال ابن وهب: بلغني أنه انتقل من ذلك الدار، فلم يره ولم يدر أين ذهب، فقال أهل تلك الدار: الله بيننا وبين ابن المنكدر، أخرج عنا الرجل الصالح)[219].

=

(217) المرجع السابق.

(218) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (3/ 151).

(219) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (3/ 152). **وينظر**: الطبقات الكبرى (5/ 360).

دعوة ابن المنكدر مستجابة:

(قال ابن المنكدر: استودعني رجل مائة دينار، فقلت له: أي أخي إن احتجنا إليها أنفقناها حتى نقضيك؟ قال: نعم، واحتجنا إليها فأنفقناها، فأتاني رسوله، فقلت: إنا قد احتجنا إليها، قال: وليس في بيتي شيء، قال: فكنت أدعو يا رب لا تخرب أمانتي وأدِّها، قال: فخرجت فحين وضعت رجلي لأدخل، فإذا رجل يأخذ بمنكبي لا أعرفه، فدفع إلي صرة فيها مائة دينار، فأداها، فأصبح الناس لا يدرون من أين ذلك، فما علموا من أين ذلك حتى مات عامر وابن المنكدر، فإذا رجل يخبر قال: بعثني بها إليه عامر يعني ابن عبد الله بن الزبير، فقال: ادفعها إليه، ولا تذكرها حتى أموت أنا أو يموت ابن المنكدر، قال: فما ذكرتها حتى ماتا جميعًا)[220].

(وعن الحر بن يزيد الحذاء. قال: "كان محمد بن المنكدر فبينا صفوان بن سليم يصلي في المسجد شطر الليل إلى أن أتاه آت فوضع على نعله خمسين دينارًا. فأخذها وحمد الله وانصرف صفوان إلى بيته.

فقال لمولاته سلامة: إن أخي محمدًا أمسى مضيقًا اذهبي إليه بهذه الدنانير فإنه يكفينا أن نأخذ منها خمسة. أو أربعة. فقالت: الساعة؟ قال: نعم. إنك تجدينه الساعة في محرابه يسأل الله. يقول: ائتني بها من حيث شئت. وكيف شئت. وأنى شئت. قال:

فتخرج بستة وأربعين دينارًا أو بخمسة وأربعين دينارًا، فأتته بها فوقفت تسمع، فإذا هو يقول: اللهم ائتني بها من حيث شئت، وأنى شئت، وكيف شئت من ساعتي هذه يا إلهي! فحمد الله على ذلك")[221].

وعن عبد الرحمن بن أبي الزناد أو غيره من أصحابه قال: "كان محمد بن المنكدر يحج في كل سنة، ويحج معه عدة من أصحابه، فبينا هو ذات يوم في منزل من منازل مكة إذ قال لغلام له: اذهب فاشتر لنا كذا فقال الغلام: والله ما أصبح عندنا قليل ولا كثير، درهم فما فوقه، قال: اذهب فإن الله يأتي به، قال: من

(220) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (3/ 152).
(221) الطبقات الكبرى (5/ 359).

أين؟ قال: سبحان الله، ثم رفع صوته بالتلبية ولبى أصحابه الذين معه، وكان إبراهيم بن هشام قد حج تلك السنة فسمع أصواتهم فقال: ما هؤلاء؟ فقيل له: محمد بن المنكدر وأصحابه حجوا ومحمد يحتمل مؤونتهم، ويحملهم ويكلف لهم.

فقال: ما بد من أن يعان محمد على هذا الذي يصنع، فبعث إليه بأربعة آلاف درهم من ساعته فدفعها محمد إلى غلامه وقال له: ويحك، ألم أقل لك اشتر لنا ما أمرتك فإن الله يأتي بهذا، وقد أتانا الله بما ترى، فاذهب فاشتر ما أمرتك به"[222].

محمَّد بن المنكدر يرى منزلته عند الموت:

(عن ابن زيد، قال: أتى صفوان بن سليم إلى محمد بن المنكدر وهو في الموت، قال: فقال: يا أبا عبد الله كأني أراك قد شق عليك الموت، قال: فما زال يهون عليه الأمر، وينجلي عن محمد، حتى إذ أن وجهه لكأنه المصابيح، ثم قال له محمد: لو ترى ما أنا فيه لقرت عينك، ثم قضى، رحمه الله)[223].

***

(222) الطبقات الكبرى (5/ 359).

(223) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (3/ 147).

عُروةُ بنُ الزُّبَيْر رحمه الله:

اسمُه ومولدُه:

هو الجهبذ الفقيه أبو عبد الله، عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب القرشي الأسدي. ولد عروة سنة ثلاث وعشرين، وقيل غير ذلك. وأما وفاته فاختلف فيها أيضًا، قيل: مات عروة سنة ثلاث وتسعين، وقيل غير ذلك. وهو ابن سبع وستين سنة[224].

فضلُه وعلمُه:

وهو صاحب العلم الوفير والفقه الغزير، رحل إليه أعيان الناس ومشاهير العلماء للسماع منه، وحمل العلم عنه، وما ذاك إلا لأنَّه عالم زمانه وإمام وقته، وهو أحد الفقهاء السبعة المعروفين، وأبوه حواريُّ رسول الله ﷺ، وأمُّه ذات النطاقين أسماء بنت الصديق رضي الله عنهما، فالفضل دائر عليه من كل جهة، وأول ذلك شرفه الذي حصل عليه من عمله الصالح.

(قال الزهري: "كنت أطلب العلم من ثلاثة، سعيد بن المسيب وكان أفقه الناس وعروة بن الزبير وكان بحرًا لا تكدره الدلاء، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وكنت لا أشأ أن أقع منه على علم ما لا أجده عند غيره إلا وقعت.. وقال قدمت مصر على عبد العزيز بن مروان وأنا أحدث عن سعيد بن المسيب قال: فقال لي إبراهيم بن عبد الله بن قارظ ما أسمعك تحدث إلا عن ابن المسيب فقلت: أجل، فقال لقد تركت رجلين من قومك لا أعلم أحدًا أكثر حديثًا منهما عروة بن الزبير وأبو سلمة بن عبد الرحمن، قال فلما رجعت إلى المدينة وجدت عروة بحرًا لا تكدره الدِّلاء".

وقال هشام: "وكان أبي يدعوني وعبد الله بن عروة وعثمان وإسماعيل إخوتي وآخر قد سماه هشام، فيقول لا تغشوني مع الناس إذا خلوت فسلوني، فكان يحدثنا يأخذ في الطلاق ثم الخلع ثم الحج ثم الهدي ثم كذا ثم

(224) سير أعلام النبلاء (4/ 434).

يقول كروا عليه، فكان يعجب من حفظي قال هشام فوالله ما تعلمنا جزءًا من ألف جزء من أحاديثه")[225].

وأما همَّة عروة فهمَّة تناطح السحاب، وثباتها فيه كثبات الجبال، وهذه الهمة همة بداية الطلب، وأمَّا بعد ذلك فحدث ولا حرج:

(فعن أبي بكر بن عبد الرحمن قال: "العلم لواحد من ثلاثة لذي حسب يزينه به أو ذي دين يسوس به دينه، أو مختبط سلطانًا يتحفه بعلمه، ولا أعلم أحدًا أشرط لهذه الخلال من عروة بن الزبير وعمر بن عبد العزيز، كلاهما حسيب دين من السلطان بارا".

وعن عروة أنه كان يقول لبنيه: "عليكم بالسنن، فإنا كنا غلمان قوم ونحن كبارهم وأنتم اليوم غلمان قوم وسوف تكونون كبارهم")[226].

جودُه وسخاؤه:

لو كان البخل رجلًا شريرًا لما سلك طريقًا يسلكه عروة؛ لكثرة نواله، وجزيل عطائه، حتى إنه ﵀ إذا اشتد ثمر بستانه وتهيأ للجذاذ؛ فتح فجوة في جداره ليدخل إليه الفقراء والمساكين وغيرهم، ليشاركوه طيب ثماره ولذيذ طعامه، وما ذاك إلا لحسن طويته وجميل سريرته؛ فرحمه الله رحمة واسعة.

روعةُ عبادته وجميلُ صبره:

كان ﵀ دائم الذكر قويَّ الصِّلة بربِّه، كيف لا، وقد اتخذ القران له أنيسًا وجليسًا لا يفارقه في سفر ولا حضر، فقد كان عروة يقرأ ربع القرآن كل يوم نظرًا في المصحف، ويقوم به الليل فما تركه إلا ليلة قطع رجله، ثم عاوده من الليلة المقبلة.

---

(225) تاريخ دمشق، لابن عساكر (40/ 251).

(226) تاريخ دمشق، لابن عساكر (40/ 255).

وأما صبره فلم يُرَ مثله فهو الحمول للنائبات، الجلد على مض النوازل، فإنه ﷺ لما أصابته الأكَلة ملك نفسه وتمالك، ولما رأى الأطباء أنه لا ينفع معها إلا البتر؛ تجلَّد لذلك وتوكَّل على ربه، وهذه قصته:

(عن هشام بن عروة عن أبيه أنه خرج إلى الوليد بن عبد الملك، حتى إذا كان بوادي القرى وجد في رجله شيئًا فظهرت به قرحة، وكانوا على رواحل فأرادوه على أن يركب محملًا فأبى عليهم ثم غلبوه فرحلوا ناقة له يحمل فركبها، ولم يركب محملًا قبل ذلك، فلما أصبح تلا هذه الآية: ﴿**مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا**﴾ [فاطر: 2] حتى فرغ منها، وقال لقد أنعم الله على هذه الأمة في هذه المحامل بنعمة لا تؤدون شكرها، وترقى في رجله الوجع حين قدم على الوليد، فلما رآه الوليد قال: يا أبا عبد الله اقطعها فإني أخاف أن تبالغ فوق ذلك، قال فدونك، قال فدعا له الطبيب وقال له اشرب المرقد، قال لا أشرب مرقدًا أبدًا، قال فقدرها الطبيب واحتاط بشي من اللحم الحي مخافة أن يبقى منها شيء ضمن فيرقى، فأخذ منشارًا فأمسه النار وارتكأ له عروة فقطعها من نصف الساق، فما زاد على أن يقول حس حس (ونظر عروة إلى رجله في الطست حين قطعت، فقال: "إن الله يعلم ما مشيت بك إلى معصية الله قط، وأنا أعلم"، فقال الوليد ما رأيت شيخًا قط أصبر من هذا، وأصيب عروة بابن له يقال له محمد في ذلك السفر دخل إسطبل دواب من الليل ليبول فركضته بغلة فقتلته، وكان من أحب ولده إليه فلم يسمع من عروة في ذلك كلمة حتى رجع، فلما كان بوادي القرى قال: "لقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا، اللهم كان لي بنون سبعة فأخذت منهم واحدًا وبقيت لي ستة، وكانت لي أطراف أربعة فأخذت مني طرفًا وبقيت لي ثلاثة، وإنك لئن ابتليت لقد عافيت، ولئن أخذت لقد أبقيت"، فلما قدم المدينة جاءه رجل من قومه يقال له عطاء بن ذؤيب فقال: يا أبا عبد الله والله ما كنا نحتاج أن نسابق بك ولا نصارع بك، ولكنا كنا نحتاج إلى رأيك والأنس بك، فأما ما أصبت به فهو أمر ذخره الله لك، وأما ما كنا نحب أن يبقى لنا منك فقد بقي)[227].

أمنيَّة عروة تتحقَّق:

(227) تاريخ دمشق، لابن عساكر (40/ 261).

عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال: "اجتمع في الحجر مصعب بن الزبير وعروة بن الزبير وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر، فقالوا: تمنوا، فقال عبد الله بن الزبير: أما أنا فأتمنى الخلافة، وقال عروة أما أنا فأتمنى أن يؤخذ عني العلم، وقال مصعب: أما أنا فأتمنى إمرة العراق والجمع بين عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين، وقال عبد الله بن عمر: أما أنا فأتمنى المغفرة، قال فنالوا كلهم ما تمنوا، ولعل ابن عمر قد غفر له"(228).

قصته مع إبليس:

(عن هشام بن عروة قال: جاء عمر بن عبد العزيز من قبل أن يستخلف إلى أبي عروة بن الزبير، فقال له: "رأيت البارحة عجبًا، كنت فوق سطحي مستلقيًا على فراشي، فسمعت جلبة في الطريق فأشرفت فظننت عسكر العسس، فإذا الشياطين يجيئون كردوسًا كردوسًا حتى اجتمعوا في جوبة خلف منزلي، قال ثم جاء إبليس، فلما اجتمعوا هتف إبليس بصوت عالٍ، فتفازعوا فقال: من لي بعروة بن الزبير فقالت طائفة منهم: نحن، فذهبوا ورجعوا وقالوا ما قدرنا منه على شيء، قال فصاح الثانية أشد من الأولى فقال من لي بعروة بن الزبير، فقالت طائفة أخرى نحن، فذهبوا فلبثوا طويلًا، ثم رجعوا وقالوا: ما قدرنا منه على شيء فصاح الثالثة صيحة ظننت أن الأرض قد انشقت، فتفازعوا فقال من لي بعروة بن الزبير فقال جماعتهم نحن فذهبوا ثم لبثوا طويلًا ثم رجعوا، فقالوا ما قدرنا منه على شيء قال فذهب إبليس مغضبًا واتبعوه"، فقال عروة بن الزبير لعمر بن عبد العزيز حدثني أبي الزبير بن العوام، قال: "سمعت رسول الله ﷺ يقول ما من رجل يدعو بهذا الدعاء في أول ليله وأول نهاره إلا عصمه الله من إبليس وجنوده، بسم الله ذي الشأن عظيم البرهان شديد السلطان ما شاء الله كان أعوذ بالله من الشيطان")(229).

من أقوال عروة رحمه الله:

(228) تاريخ دمشق، لابن عساكر (40/ 267).
(229) تاريخ دمشق، لابن عساكر (40/ 268).

1- عن هشام بن عروة قال: كان عروة يقول لبنيه: "الناس بأنفسهم أشبه منه بآبائهم، قال وكان عروة يقول إذا رأيتم من رجل خلة رائعة من شر فاحذروه، وإن كان عند الناس رجل صدق فإن لها عنده أخوات وإذا رأيتم من رجل خلة رائعة من خير فلا تقطعوا أناتكم عنهم، فإن كان عند الناس رجل سوء فإن لها عنده أخوات".

2- وقال: "رُبَّ كلمة ذل احتملتها أورثتني عزًّا طويلًا".

3- وقال: "أفضل ما أعطي العباد في الدنيا العقل وأفضل ما أعطوا في الآخرة رضوان الله"[230].

4- وقال: "ليس الرجل الذي إذ وقع في الأمر تخلص منه، ولكن الرجل يتوقى الأمور حتى لا يقع فيها".

5- وقال: "ما أحب أن أدفن في البقيع لأن أدفن في غيرها أحب إليَّ من أدفن فيها، إنما هو أحد رجلين إما ظالم فما أحب أن أكون في قبره، وإما صالح فما أحب أن تنبش لي عظامه"[231].

❊ ❊ ❊

(230) تاريخ دمشق، لابن عساكر (40/ 271).

(231) تاريخ دمشق، لابن عساكر (40/ 282).

الإمامُ النَّسائِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

نسبُه ومولدُه ووفاتُه:

هو الإمام، الحافظ، البارع، شيخ الإسلام، ومعلم الأنام، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر الخراساني، النسائي، صاحب (السنن)، وكان النسائي يسكن بزقاق القناديل بمصر، ولد بنَسا في سنة خمس عشرة ومائتين.

كان رَحِمَهُ اللَّهُ من بحور العلم، مع الفهم، والإتقان، والبصر، ونقد الرجال، وحسن التأليف.

جال في طلب العلم في خراسان، والحجاز، ومصر، والعراق، والجزيرة، والشام، والثغور، ثم استوطن مصر، ورحل الحفاظ إليه، ولم يبق له نظير في هذا الشأن.

وكان نضر الوجه مع كبر السن، يؤثر لباس البرود النوبية والخضر، ويكثر الاستمتاع، له أربع زوجات، فكان يقسم لهن، ولا يخلو مع ذلك من سرية، وكان يكثر أكل الديوك تشترى له وتسمن وتخصى[232].

فَضلُ النَّسائي وتقديم العُلَماء له:

قال مأمون المصري المحدث: "خرجنا إلى طرسوس مع النسائي سنة الفداء، فاجتمع جماعة من الأئمة: عبد الله بن أحمد بن حنبل، ومحمد بن إبراهيم مربع، وأبو الآذان، وكيلجة -بكسر الكاف وفتح اللام هو محمد بن صالح بن عبد الرحمن البغدادي، أبو بكر الأنماطي، الملقب كيلجة-، فتشاوروا: من ينتقي لهم على الشيوخ؟ فأجمعوا على أبي عبد الرحمن النسائي، وكتبوا كلهم بانتخابه"[233].

(232) سير أعلام النبلاء (14/ 125). **ينظر**: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (3/ 14)، وتاريخ الإسلام (7/ 59)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (71/ 170).

(233) سير أعلام النبلاء (14/ 130).

سَعةُ علمِه وإعجاب العُلَماء به:

كان النسائي رحمه الله فريدَ عصره وحجَّة زمانه، مع حسن اختيار وقوة ورع، مما جعل علماء زمانه يعجبون به ويقدمونه على غيره، بل يكتفون بقوله دون غيره.

(ولم يكن أحد في رأس الثلاث مائة أحفظ من النسائي، هو أحذق بالحديث وعلله ورجاله من مسلم، ومن أبي داود، ومن أبي عيسى، وهو جار في مضمار البخاري، وأبي زرعة إلا أن فيه قليل تشيع وانحراف عن خصوم الإمام علي، كمعاوية وعمرو، والله يسامحه)[234].

(وقال الحاكم: "كلام النسائي على فقه الحديث كثير، ومن نظر في (سننه) تحير في حسن كلامه".

وقال ابن الأثير في أول (جامع الأصول): "كان شافعيًّا له مناسك على مذهب الشافعي وكان ورعًا متحريًّا".

وقال الحافظ أبو علي النيسابوري: "أخبرنا الإمام في الحديث بلا مدافعة أبو عبد الرحمن النسائي".

وقال أبو الحسن الدارقطني: "أبو عبد الرحمن مقدم على كل من يذكر بهذا العلم من أهل عصره".

وقال الحافظ ابن طاهر: "سألت سعد بن علي الزنجاني عن رجل، فوثقه، فقلت: قد ضعفه النسائي، فقال: يا بني! إن لأبي عبد الرحمن شرطًا في الرجال أشد من شرط البخاري ومسلم.

قلت: صدق فإنه لين جماعة من رجال صحيحي البخاري ومسلم".

وقال الدارقطني: "كان أبو بكر بن الحداد الشافعي كثير الحديث ولم يحدث عن غير النسائي، وقال: رضيت به حجة بيني وبين الله تعالى".

(234) سير أعلام النبلاء (14/ 133).

وقال: "وكان أفقه مشايخ مصر في عصره، وأعلمهم بالحديث والرجال".

وقال أبو عبد الله بن منده: "الذين أخرجوا الصحيح وميزوا الثابت من المعلول، والخطأ من الصواب أربعة: البخاري، ومسلم، وأبو داود، وأبو عبد الرحمن النسائي".

وقال محمد بن المظفر الحافظ: "سمعت مشايخنا بمصر يصفون اجتهاد النسائي في العبادة بالليل والنهار، وأنه خرج إلى الفداء مع أمير مصر فوصف من شهامته وإقامته السنن المأثورة في فداء المسلمين، واحترازه عن مجالس السلطان الذي خرج معه، والانبساط في المأكل، وأنه لم يزل ذلك دأبه إلى أن استشهد بدمشق من جهة الخوار")[235].

وفاتُه:

(قال الدارقطني: "خرج حاجًّا فامتحن بدمشق، وأدرك الشهادة فقال: احملوني إلى مكة؛ فحمل وتوفي بها، وهو مدفون بين الصفا والمروة، وكانت وفاته في شعبان سنة ثلاث وثلاث مائة".

وقال أبو سعيد بن يونس في (تاريخه): "كان أبو عبد الرحمن النسائي إمامًا حافظًا ثبتًا، خرج من مصر في شهر ذي القعدة من سنة اثنتين وثلاث مائة، وتوفي بفلسطين في يوم الاثنين لثلاث عشرة خلت من صفر، سنة ثلاث".

قلت[236]: هذا أصح، فإن ابن يونس حافظ يقظ وقد أخذ عن النسائي، وهو به عارف)[237].

***

(235) سير أعلام النبلاء (14/ 130). **وينظر**: تاريخ دمشق، لابن عساكر (71/ 170).

(236) **أي**: الذهبي.

(237) سير أعلام النبلاء (14/ 132)، وتاريخ الإسلام (7/ 59).

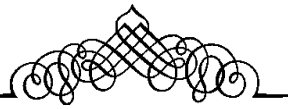

أبو حَنيفةَ النُّعمانُ رحمه الله:

نسبه ومولده ووفاته:

هو إمام أهل الرأي أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زُوطَى -بضم الزاي وفتح الطاء- التيمي، الكوفي، مولى بني تيم الله بن ثعلبة. ويقال: إنه من أبناء الفرس. وكان أبو حنيفة خزَّازًا[238]، ودكانه معروف في دار عمرو بن حريث.

وكان رَبعةً من الرجال، ليس بالقصير ولا بالطويل، وكان أحسن الناس منطقًا، وأحلاه نغمة، وأنبهه على ما يريده، وكان لباسًا حسن الهيئة، كثير التعطر، يعرف بريح الطيب إذا أقبل، وإذا خرج من منزله قبل أن تراه.

ولد: سنة ثمانين، في حياة صغار الصحابة. توفي: شهيدًا، مسقيًّا، في سنة خمسين ومائة، وله سبعون سنة[239].

ثناءُ العُلَماء عليه:

قال الذهبي عنه: "عني بطلب الآثار، وارتحل في ذلك، وأما الفقه والتدقيق في الرأي وغوامضه، فإليه المنتهى، والناس عليه عيال في ذلك"[240].

قال يحيى بن معين: "كان أبو حنيفة ثقة، لا يحدث بالحديث إلا بما يحفظه، ولا يحدث بما لا يحفظ".

---

(238) والخزُّ نوع من الثياب ونسب إليه لأنه كان يبيعه.

(239) **ينظر**: سير أعلام النبلاء (6/ 390)، والتاريخ الكبير للبخاري (8/ 81)، وتاريخ بغداد (15/ 446)، وتاريخ الإسلام (3/ 990)، والتكميل في الجرح والتعديل ومعرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل (1/ 375).

(240) سير أعلام النبلاء (6/ 392).

وقال عبد الله بن المبارك: "لولا أن الله أعانني بأبي حنيفة وسفيان، كنت كسائر الناس".

وعن حجر بن عبد الجبار، قال: قيل للقاسم بن معن: ترضى أن تكون من غلمان أبي حنيفة؟ قال: ما جلس الناس إلى أحد أنفع من مجالسة أبي حنيفة، وقال له القاسم: تعال معي إليه. فلما جاء إليه، لزمه، وقال: ما رأيت مثل هذا".

وعن الشافعي قال: "قيل لمالك: هل رأيت أبا حنيفة؟ قال: نعم، رأيت رجلًا لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهبًا، لقام بحجته".

وعن ابن المبارك، قال: "ما رأيت رجلًا أوقر في مجلسه، ولا أحسن سمتًا وحلمًا من أبي حنيفة".

وعن قيس بن الربيع، قال: "كان أبو حنيفة ورعًا، تقيًّا، مفضلًا على إخوانه".

وعن شريك، قال: "كان أبو حنيفة طويل الصمت، كثير العقل".

وعن أبي معاوية الضرير، قال: "حبُّ أبي حنيفة من السنة".

وقال الخريبي: "ما يقع في أبي حنيفة إلا حاسد، أو جاهل".

وعن الفضيل بن عياض، قال: "كان أبو حنيفة رجلًا فقيهًا معروفًا بالفقه، مشهورًا بالورع، واسع المال، معروفًا بالإفضال على كل من يطيف به، صبورًا على تعليم العلم بالليل والنهار، حسن الليل، كثير الصمت، قليل الكلام، حتى ترد مسألة في حلال أو حرام، وكان يحسن أن يدل على الحق هاربًا من مال السلطان"[241].

رؤيا أبي حنيفة:

(241) **ينظر**: سير أعلام النبلاء (6/ 392) و(6/ 395) و(6/ 398)، وتاريخ بغداد (15/ 446) و(15/ 461)، وتاريخ الإسلام (3/ 990)، والتكميل في الجرح والتعديل ومعرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل (1/ 375).

عن هشام بن مهران، قال: "رأى أبو حنيفة في النوم كأنه ينبش قبر النبي ﷺ، فبعث من سأل له محمد بن سيرين، فقال محمد بن سيرين: من صاحب هذه الرؤيا؟ ولم يجبه عنها، ثم سأله الثانية، فقال: مثل ذلك، ثم سأله الثالثة، فقال: صاحب هذه الرؤيا يثور علمًا لم يسبقه إليه أحد قبله، قال هشام: فنظر أبو حنيفة وتكلم حينئذ"(242).

سَعةُ علمه وغزارةُ فِقهِه:

كان أبو حنيفة مبرزًا في الفقه، يعرف دقائق المسائل وقد عَرف ذلك القاصي والداني.

قال علي بن عاصم: "لو وزن علم الإمام أبي حنيفة بعلم أهل زمانه، لرجح عليهم".

وقال حفص بن غياث: "كلام أبي حنيفة في الفقه، أدق من الشعر، لا يعيبه إلا جاهل".

وروي عن الأعمش: أنه سئل عن مسألة، فقال: "إنما يحسن هذا النعمان بن ثابت الخزاز، وأظنه بورك له في علمه".

وقال جرير: "قال لي مغيرة: جالس أبا حنيفة، تفقه، فإن إبراهيم النخعي لو كان حيًّا لجالسه".

وقال ابن المبارك: "أبو حنيفة أفقه الناس".

وقال الشافعي: "الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة".

قال الذهبي: "الإمامة في الفقه ودقائقه مسلمة إلى هذا الإمام، وهذا أمر لا شك فيه".

وروى: حيان بن موسى المروزي، قال: "سئل ابن المبارك: مالك أفقه، أو أبو حنيفة؟ قال: أبو حنيفة".

(242) تاريخ بغداد (15/ 459).

وقال يحيى بن سعيد القطان: "لا نكذب الله، ما سمعنا أحسن من رأي أبي حنيفة، وقد أخذنا بأكثر أقواله")[243].

وقال عبد الله بن المبارك: "قدمت الشام على الأوزاعي فرأيته ببيروت، فقال لي: يا خراساني، من هذا المبتدع الذي خرج بالكوفة، يكنى: أبا حنيفة، فرجعت إلى بيتي فأقبلت على كتب أبي حنيفة، فأخرجت منها مسائل من جياد المسائل، وبقيت في ذلك ثلاثة أيام، فجئت يوم الثالث، وهو مؤذن مسجدهم وإمامهم، والكتاب في يدي، فقال لي: أي شيء هذا الكتاب؟ فناولته، فنظر في مسألة منها وقعت عليها، قال: النعمان بن ثابت، فما زال قائما بعد ما أذن حتى قرأ صدرا من الكتاب، ثم وضع الكتاب في كمه، ثم أقام وصلى، ثم أخرج الكتاب حتى أتى عليها، فقال لي: يا خراساني، من النعمان بن ثابت هذا؟ قلت: شيخ لقيته بالعراق، فقال: هذا نبيل من المشايخ، اذهب فاستكثر منه، قلت: هذا أبو حنيفة الذي نهيت عنه"[244].

ذكْرُ شيءٍ من جُوده وسخائِه:

(عن قيس بن الربيع قال: "إن أبا حنيفة كان يبعث بالبضائع إلى بغداد، فيشتري بها الأمتعة ويحملها إلى الكوفة، ويجمع الأرباح عنده من سنة إلى سنة، فيشتري بها حوائج الأشياخ المحدثين، وأقواتهم وكسوتهم وجميع حوائجهم، ثم يدفع باقي الدنانير من الأرباح إليهم، فيقول: أنفقوا في حوائجكم ولا تحمدوا إلا الله، فإني ما أعطيتكم من مالي شيئًا، ولكن من فضل الله علي فيكم، وهذه أرباح بضائعكم، فإنه هو والله مما يجريه الله لكم على يدي، فما في رزق الله حول لغيره".

(243) سير أعلام النبلاء (6/ 403). **وينظر**: تاريخ بغداد (15/ 461).
(244) تاريخ بغداد (15/ 464).

وقال حفص بن حمزة القرشي: "كان أبو حنيفة ربما مر به الرجل، فيجلس إليه لغير قصد ولا مجالسة، فإذا قام سأل عنه، فإن كانت به فاقة وصله، وإن مرض عاده حتى يجره إلى مواصلته، وكان أكرم الناس مجالسة".

وعن الحسن بن زياد، قال: "رأى أبو حنيفة على بعض جلسائه ثيابًا رثَّة، فأمره فجلس حتى تفرق الناس وبقي وحده، فقال له: ارفع المصلى وخذ ما تحته، فرفع الرجل المصلى فكان تحته ألف درهم، فقال له: خذ هذه الدراهم فغيِّر بها من حالك، فقال الرجل: إني موسر، وأنا في نعمة ولست أحتاج إليها، فقال له: أما بلغك الحديث: «**إِنَّ اللَّهَ يُحِبَّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ**»[245]؟ فينبغي لك أن تغير حالك حتى لا يغتم بك صديقك")[246].

وصف عبادتِه:

فقد كان ﵀ كثير الصلاة دائم الذكر؛ بل إنه كان يحافظ على وضوئه لدرجة أنه صلى الفجر بوضوء العشاء في مدة تقدر بأربعين سنة! ومعنى هذا أنه كان من رهبان الليل، حتى أنه كان يُسمى بالوتد لطول قيامه في الصلاة.

وقد كان يكثر من قراءة القرآن، حتى أنه كان يختم قراءته في ليلة وربما في ركعة! ومرة قرأ قوله تعالى: ﴿**بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ**﴾ [القمر: 46] فقام يرددها ويبكي حتى بزغ الفجر.

وكان لا يدع الطواف في أي ساعة من ساعات الليل[247].

(245) أخرجه الترمذي (5/ 123) برقم: 2819.
(246) تاريخ بغداد (15/ 493).
(247) **ينظر**: تاريخ بغداد (15/ 483)، وسير أعلام النبلاء (6/ 399).

سحنون رحمه الله:

اسمُه ونسبُه ومولدُه ووفاتُه:

هو الإمام الزاهد العابد، فقيه المغرب أبو سعيد عبد السلام بن سعيد بن حبيب بن حسان بن هلال بن بكار بن ربيعة التنوخي، الملقب بسحنون، وهو الذي نشر مذهب مالك في المغرب، وقد اجتمع له ما لم يجتمع لأحد من أصحاب مالك، وهو صاحب المدونة.

وكانت ولادته أول ليلة من شهر رمضان سنة ستين ومائة، وتوفي في يوم الثلاثاء، لتسع خلون من رجب سنة أربعين ومائتين، رحمه الله تعالى.

وسحنون بفتح السين وبضمها، طائر بالمغرب[248].

كتابُه المدوَّنة:

كتاب المدونة في الفقه المالكي، أصله أسئلة أسد بن الفرات لابن القاسم صاحب مالك، وجواب ابن القاسم. ثم كتبها عنه سحنون، ثم أخذها وذهب بها إلى ابن القاسم، في سنة ثمان وثمانين ومائة فعرضها عليه وأصلح فيها مسائل ورجع بها إلى القيروان في سنة إحدى وتسعين ومائة، ثم رتبها سحنون على الأبواب الفقهية واستدل لمسائلها بالآثار، فجاءت أكمل من ذي قبل وصارت مرجعًا للمالكية[249].

ثَناءُ العُلَماء عليه:

قال الذهبي: وساد أهل المغرب في تحرير المذهب، وانتهت إليه رئاسة العلم.

---

(248) **ينظر**: فيات الأعيان (3/ 180)، والثقات ممن لم يقع في الكتب الستة (4/ 415)، وتاريخ الإسلام (5/ 868)، وسير أعلام النبلاء (12/ 63).

(249) **ينظر**: وفيات الأعيان (3/ 181).

وعلى قوله المعوَّل بتلك الناحية، وتفقَّه به عدد كثير، وكان قد تفقَّه أولًا بإفريقية على ابن غانم وغيره.

وكان ارتحاله في سنة ثمان وثمانين ومائة، وكان موصوفًا بالعقل والديانة التامة والورع، مشهورًا بالجود والبذل، وافر الحرمة، عديم النظير(250).

فعن أشهب قال: "ما قدم علينا مثل سحنون".

وعن يونس بن عبد الأعلى قال: "سحنون سيد أهل المغرب".

وعن ابن عجلان الأندلسي قال: "ما بورك لأحد بعد النبي ﷺ في أصحابه ما بورك لسحنون في أصحابه، فإنهم كانوا في كل بلد أئمة".

قال أحمد بن خالد: "كان محمد بن وضاح لا يفضِّل أحدًا ممن لقي على سحنون في الفقه، وتصنيف المسائل"(251).

قال أبو العرب: "اجتمعت في سحنون خِلالٌ قلَّما اجتمعت في غيره: الفقه البارع، والورع الصادق، والصرامة في الحق، والزهادة في الدنيا، والتخشُّن في الملبس والمطعم، والسماحة.

كان ربما وصل إخوانه بالثلاثين دينارًا، وكان لا يقبل من أحد شيئًا.

ولم يكن يهاب سلطانًا في حقٍّ، شديد على أهل البدع، انتشرت إمامته، وأجمعوا على فضله، قدم به أبوه مع جند الحمصيين، وهو من تنوخ صليبة.

وقال عيسى بن مسكين: "سحنون راهب هذه الأمة، ولم يكن بين مالك وسحنون أحد أفقه من سحنون"(252).

(250) سير أعلام النبلاء (12/ 64).
(251) تاريخ الإسلام (5/ 867).

أقوال سحنون:

قال سحنون: "من لم يعمل بعلمه لم ينفعه علمه بل يضره".

وقال: "إذا أتى الرجل مجلس القاضي ثلاثة أيام متوالية بلا حاجة ينبغي أن لا تقبل شهادته".

وسئل سحنون: أيسع العالم أن يقول: لا أدري فيما يدري؟ فقال: "أما ما فيه كتاب أو سنة بائنة فلا، وأما ما كان من هذا الرأي فإنه يسعه ذلك؛ لأنه لا يدري أمصيب هو أم مخطئ".

وعن سحنون قال: "أكل بالمسكنة خير من أكل بالعلم".

وقال: "محب الدنيا أعمى لم ينوره العلم".

"ما أقبح بالعالم أن يأتي الأمراء فيقال هو عند الأمير، والله ما دخلت قط على السلطان إلا وإذا خرجت حاسبت نفسي، فوجدت عليها الدرك، وأنتم ترون مخالفتي لهواه وما ألقاه به من الغلظة، والله ما أخذت لهم درهمًا، ولا لبست لهم ثوبًا".

وعنه، قال: "أنا أحفظ مسائل فيها ثمانية أقاويل من ثمانية أئمة، فكيف ينبغي أن أعجل بالجواب؟".

وقيل: إن زيادة الله الأمير بعث يسأل سحنونًا عن مسألة، فلم يجبه، فقال له محمد بن عبدوس: أخرج من بلد القوم، أمس ترجع عن الصلاة خلف قاضيهم، واليوم لا تجيبهم؟!

قال: "أفأجيب من يريد أن يتفكه، يريد أن يأخذ قولي وقول غيري، ولو كان شيئًا يقصد به الدين، لأجبته".

وعنه، قال: "ما وجدت من باع آخرته بدنيا غيره إلا المفتي".

=

(252) تاريخ الإسلام (5/ 868). **وينظر**: سير أعلام النبلاء (12/ 65).

وعن يحيى بن عون، قال: دخلت مع سحنون على ابن القصار وهو مريض، فقال: "ما هذا القلق؟"، قال له: الموت والقدوم على الله.

قال له سحنون: "ألست مصدقًا بالرسل والبعث والحساب، والجنة والنار، وأن أفضل هذه الأمة أبو بكر ثم عمر، والقرآن كلام الله غير مخلوق، وأن الله يرى يوم القيامة، وأنه على العرش استوى، ولا تخرج على الأئمة بالسيف، وإن جاروا".

قال: إي والله.

فقال: "مت إذا شئت، مت إذا شئت".

وعن سحنون، قال: "كبرنا وساءت أخلاقنا، ويعلم الله ما أصيح عليكم إلا لأؤدبكم".

وعنه، قال: "ما عميت علي مسألة، إلا وجدت فرجها في كتب ابن وهب".

وعن سحنون، قال: "إني حفظت هذه الكتب، حتى صارت في صدري كأم القرآن".

وعنه، قال: "إني لأخرج من الدنيا، ولا يسألني الله عن مسألة قلت فيها برأيي، وما أكثر ما لا أعرف"[253].

***

(253) تاريخ الإسلام (5/ 868). **وينظر**: سير أعلام النبلاء (12/ 65).

الفهرس:

المقدِّمة: 2
الإمامُ الأوْزاعِيُّ رحمه الله: 4
اللَّيْثُ بنُ سَعْد رحمه الله: 13
عبدُ اللّه بنُ المُبارَك رحمه الله: 21
وَكيعُ بنُ الجَرَّاح رحمه الله: 44
الملِكُ العادِل: محمود زنكي رحمه الله 61
سُلْطانُ العُلَماءِ: العِزُّ بنُ عَبدِ السَّلام رحمه الله 75
محمَّد بن المنكدر رحمه الله: 87
عُروةُ بنُ الزُّبَيْر رحمه الله: 97
الإمامُ النَّسائِيُّ رحمه الله: 102
أبو حَنيفةَ النُّعمانُ رحمه الله: 105
سحنون رحمه الله: 110

* * *